سجن بلا أبواب

صيدنايا

محمد الحاج مستو

صيدنايا سجن بلا ابواب

"الظلم لا يبنيه الحجر... بل يبنيه بشرٌ ماتت فيهم الرحمة."

محمد الحاج مستو

نصيحة

"عندما تقرأ هذا الكتاب... البس عباءة الإنسانية

ولا تتعامل مع السطور كحبرٍ على ورق، بل كأنينٍ متقطع خرج من روحٍ انهكها القيد. اجلس كقاضٍ عادلٍ لا كمجرّد قارئ، وافتح قلبك قبل عينيك،

ففي كل فصل هناك إنسان لم يُسمع له صوت، ولم تُرفع له راية، ولم يُذكر له اسم. تذكّر أن خلف كل كلمة سجينٌ قد لا يعرف القراءة،

وخلف كل مشهد قلبٌ كان ينبض بالأمل ذات يوم ثم خذلوه. لا تُحاكم الرواية، بل حاكم العالم الذي جعلها ممكنة."

مقدّمة الرواية:

هذه ليست حكاية عن سجنٍ عادي، وليست مجرّد رواية عن التعذيب والقسوة
بل هي شهادة تُكتَب بالدم، عن مكانٍ خرج عن حدود الزمان،
عن جدران لا تحفظ الأسرار، بل تصرخ بها.
في صيدنايا، لا يُقاس الوقت بالساعات، بل بعدد العظام التي تكسّرت،
والأرواح التي ذابت كأنها لم تكن.
هذه الرواية لا تحاول أن تُقنعك بشيء، ولا أن تُزيّن القبح أو تصنع أبطالاً من الخيال. إنها كلمات من تحت الأرض، من زنزانة لم تكن غرفة... بل مقبرة للأحياء.
كل شخصية في هذه الحكاية ليست اختراعًا، بل انعكاس لأصوات حقيقية،
رجلٌ صلّى دون أن يعرف اتجاه القبلة، امرأةٌ احترق جسدها قبل أن تُدفن،
طبيب عالج بيدٍ مكسورة، وشاعر كتب دمه على الحائط لأن الحبر كان مرفّهًا أكثر من اللازم.
هذه ليست رواية رعب، بل رعبٌ حقيقي تحوّل إلى أدب...لأننا لم نجد وسيلة أخرى لننقله للعالم.
اقرأ، لا لتتألم... بل لتشهد.

"صفر: عند الباب"

عندما لا يكون للهوية اي قيمة او معنى

أدخلوا رؤوسكم في الحائط، لا تنظروا... لا تتنفسوا إلا بإذن.

هكذا صرخ الجندي فينا ونحن نترجّل من العربة المغلقة.

كانت أبوابها تُفتح لأول مرة منذ تسع ساعات، تسع ساعات كانت فيها أجسادنا تتراصّ كالعظام داخل قبر، والهواء يُسرق من بيننا كما يُسرق الحليب من فم طفل.

خرجتُ أنا رقم خمسة.

نعم، هذا ما أصبحتُ عليه: رقم.

كنتُ أستاذًا جامعيًا، أُدرّس الفلسفة في جامعة دمشق.

كنتُ أكتب عن "الوعي واللاوعي"... لكن لم أعرف أن اللاوعي الحقيقي يبدأ حين يدخل الإنسان صيدنايا.

الليل في الجبل لا يُشبه الليل في المدن. هنا، في صيدنايا، الليل ليس مظلمةً فقط...

إنه صامت، متواطئ، يتواطأ مع الألم ويُخبئ الصراخ.

كنا نقف بجانب بعضنا، ووجوهنا للحائط، في طابور طويل ،لا أحد يعرف الآخر.

لا أحد يجرؤ على النظر يمينًا أو يسارًا. السكون يشبه صلاة، لكن دون خشوع...

هنا، كل شيء بلا روح.

مرّ الجندي بيننا وهو يحمل عصًا مطاطية غليظة، يضرب بها الأرجل كيفما اتفق... فقط ليتأكد أنك حي. وإن تأوّهت؟ سيُفتح لك باب إلى الجحيم، اسمه "الاستقبال".

الاستقبال في صيدنايا ليس قاعة بها موظفون وأوراق.

بل غرفة مظلمة بلا نوافذ، لا يدخلها إلا من شاء القدر أن يسقط من عينيه كل المعاني.

دخلونا فرادى. كان الجندي يقبض على ذراعيّ وكأنني خشبة.

وأدخلني إلى غرفة ، ثم سمعتُ صوت الباب يُغلق خلفي.

أول ما شعرتُ به: الرائحة.

كانت هناك رائحة فظيعة... مزيج من عرقٍ قديم، دم متخثّر، وبولٍ لم يُغسل منذ سنوات.

ثم بدأ الصوت:

"مدّ رجليك... مدّ يديك... قل اسمك الكامل، قل اسم أمك، قل آخر مرة ضحكت فيها..."

هل كان هذا تحقيقًا؟

لا.

كان طقس عبور، نوعًا من الجنون الذي يُراد لك أن تتبناه.

وكأنهم يقولون لك: أنت الآن خارج التاريخ، خارج الزمان ، أنت صفر.

ضربوني حتى انقلبتُ على الأرض، ثم رفعوني ، ثم أعادوا ضربي .

ثم وضعوا شيئًا على وجهي كقماش، وسكبوا عليه ماءً.

هل تسمع صوت قلبك حين يغرق؟

أنا سمعته.

مرّت بي لحظات وأنا أرتجف كمن يتخلى عنه الله في البرد.

سمعتُ شخصًا يهمس:

"لا تَمت... لا تَمت الآن... لم يحن وقتك."

صوت قديم، هش، يأتي من زاوية الغرفة، ربما سجين أسبق، أو ظلّ رجلٍ نساه الموت.

لا أعلم ، لكنني تمسكت به. تمسكتُ بذلك الصوت أكثر من اسمي.

بعد ساعات من السقوط والتجريد والركل...

أُعطيتُ "لباسًا" جديدًا، بلونٍ لا أدري ما هو.

ثم قادني الجندي نحو ممر طويل.

كأننا نهبط إلى باطن الأرض...

كان الممر يضيق كلما مشينا...

الجدران تقترب... الهواء يقلّ... الضوء يتلاشى. ثم وقفنا أمام باب حديدي سميك.

قال الجندي:

"أنت الآن في الجناح الأحمر...

كل من دخل، لم يخرج." فتح الباب، ثم دفعني. دخلت... ولأول مرة، لم أعد أنا.

في الداخل، كان الظلام كثيفًا.

صوت أنين خافت، ربما هو الريح، أو شخص يحتضر منذ أيام.

تقدّمتُ بخطوات بطيئة، وتحسستُ الجدار.

ثم سمعت صوتًا خافتًا:

"مرحبا... لا تخف ، هنا لا أحد يموت بسرعة."

كان صوتًا آتيًا من أحد الزوايا، متهدّجًا، كأن صاحبه اعتاد الكلام في العتمة.

سألته بصوت منخفض:

"أين أنا؟"

أجاب:

"أنت في صيدنايا...

لكنك في الحقيقة، دخلت نهاية العالم."

الظلام لا يُشبه الظلام هنا، الظلمة ليست غياب الضوء، بل كائنٌ حيّ، يزحف عليك من السقف، يدخل عينيك، ويسكن تحت لسانك، حتى تصير جزءًا منه.

كنت أتحسس الجدار بأطراف أصابعي حين شعرت بشيءٍ رطب...

سائل دافئ على الحجر البارد...

رائحة دم قديم تفوح ، ثم أصابعي لمست شيئًا لينًا، لحمًا بشريًا.

تراجعت، فارتطمت بجسد آخر. صوت أنين. ثم صوت سعالٍ مختنق.

ثم همسٌ خلفي:

"لا تتحرك... إنهم يراقبون حتى في العتمة."

وقبل أن ألتقط أنفاسي، فُتح الباب فجأة.

ضوء كشافٍ قوي اخترق العتمة كالسكين.

عينيّ لم تحتمل الضوء، وكأنهما احترقتا.

ثم صوت الجندي يصرخ: "رقم 24... رقم 24... جهّز نفسك."

سمعت حركة جسدٍ يسحب نفسه على الأرض.

كان ذلك "رقم 24"، يزحف، لا يمشي.

رجلاه مكسورتان، لا يحمل جسده إلا بذراعيه العاريتين. وجهه مشوّه، عينه مفقوءة، وأسنانه ناقصة.

مرّ أمامي، وقال بصوت مبحوح وهو يضحك:

"لا تخف... سيعيدونك بعد ساعتين... لكنك لن تعود كما أنت."

ثم خرج ، و أغلق الباب. و بدأ الصمت.

لكن الصمت في صيدنايا له صوت.

مرت ساعة... اثنتان... أو هكذا ظننت. لا وقت في صيدنايا.

لا نافذة... لا ساعة... لا شروق ولا غروب. فجأة، سُمع صراخٌ قادم من بعيد.

صراخٌ إنساني، فظيع، كأن صاحب الصوت يُجلد بالسكاكين.

ثم، اختلط الصراخ بنشيج... ثم ضحكة مجنونة.

ثم طرقات... طرقات على الحائط، كأن هناك من يحاول الهروب من الداخل، لا من الخارج.

سألت الرجل القابع إلى جواري، والذي لم أرَ وجهه بعد: "هل هذا رقم 24؟"

ردّ بصوت هامس وكأنه يصلّي:

"رقم 24 مات منذ ثلاثة أشهر... لكنهم... ما زالوا يخرجونه كل أسبوع."

حين نُقلنا في الصباح – إن جاز تسميته صباحًا – إلى ساحة "التهوية"، لم تكن ساحة، ولا تهوية.

كانت غرفة صغيرة، مغلقة من الأعلى بشبك صدئ، تمرّ منه أشعة باهتة مثل سيف.

هناك رأيت الوجوه لأول مرة.

رجالٌ بلا وجوه ، جفونهم مفقودة، شفاهم ممزقة، عيونهم مطفأة

كأنهم تماثيل عُذّبت ثم تُركت على قيد الحياة.

اقترب مني أحدهم، كان يبدو أقدمهم، همس لي: "لا تنظر في عيونهم

الجدران هنا تنقل النظرات ، ويُعاقبونك إن رآك أحد."

سألته:

"من؟ من يُعاقب؟"

قال:

"هم الكائنات التي تعيش في الطابق السفلي

الذين لا يتكلمون... فقط يصرخون."

وفي الليل، بدأ الكابوس الحقيقي.

رنّ جرس ، فتحوا الباب فجأة، وصرخوا: "الكل يضع وجهه على الأرض

لا أحد يتحرك!"

امتثلنا. ثم دخلوا، كأنهم عاصفة. سمعت صوت جرّ شيء يُسحب من الزاوية.

ثم أصوات ركلٍ، صراخ، صوت لحم يُصفَع.

ثم صوتٌ يقول:

"اعترف! اعترف بأنك رأيت الحلم!"

ثم صرخة، وشيء يشبه الكسر... كسر في الجمجمة ربما.

ثم سكون. ثم خرجوا. وأُغلق الباب ، وظلّ في الغرفة رائحة الموت الطازج.

تلمستُ المكان حولي.

وجدت يدًا مرتخية، حرّكتها لا حياة فيها. كان أحدهم قد مات. لكن لا أحد يحمله.

لا أحد يبكيه. لا أحد يذكر اسمه.

فقط، سُحب إلى الزاوية، ووُضع فوقه غطاء بالٍ

ثم استأنف الجميع نومهم أو بالأحرى، انتظار الموت

عند منتصف اللاوقت ، سمعنا الخطوات. خطواتُ حذاءٍ عسكري تطرق الأرض ببطء ليست خطوات سجين، بل مَن يملك مفاتيح الألم.

كانوا ثلاثة. واحدٌ يُمسك كشافًا. واثنان بأيديهما أسلاك كهرباء مكشوفة، تتدلّى منها قطرات دم.

فتحوا الباب، فانتشر ضوء ساطع، مؤذٍ.

ثم نادوا:

"الرقم الجديد يلا تعال!"

كنتُ أنا.

أشاروا لي دون حتى أن يذكروا رقمي... لكني عرفت، لأن الجميع انسحبوا بأجسادهم إلى الخلف.

كأن شيئًا في الهواء صار أكثر سمكًا، أكثر بردًا. سحبتني يد أحدهم من عنقي.

أخرجوني إلى الممر.

في الممر، كان الجدار مغطى ببقع بنية وسوداء

قال أحدهم ببرود:

"كل نقطة دم هون حكاية ما بتخلص."

ثم ضحك. دخلتُ غرفة أخرى.الباردة ، الحقيقية ،التي لا اسم لها.

أجلسوني على كرسي معدني، وقيدوا يديّ إلى الوراء.

ثم لفوا وجهي بقطعة قماش سميكة.

وسكبوا الماء.

الماء...

الماء في هذه اللحظة ليس نعمة، بل تعذيب مطلق.

كنت أختنق، أبلع وأتقيأ وأشهق، دون أن أتنفس.

كأن الماء يحاول الدخول إلى رئتيّ بدل الهواء.

ثم توقفوا. قال أحدهم:

"اعترف إنك عم تحلم كتير صيدنايا ما بتسمح بالأحلام."

صرخت:

"أنا ما أنا ما بحلم!"

فأعاد الماء. الموجة الثانية كانت أشرس. ثم صرخة، ثم سكون.

حين أفقتُ، كنت ممددًا على الأرض.

الضوء خافت حلقي محترق. جفوني ثقيلة. وكان هناك شيء رطب تحتي... دم.

سمعتُ صوتًا قرب أذني:

"أنت هلأ جاهز لتعيش هون... نزعنا منك اسمك، وشكلك، وحتى أحلامك."

ثم رسم أحدهم رقمًا على ظهري بالفحم: 27.

أعادوني إلى الزنزانة.

كل العيون المطفأة التفتت نحوي دون أن ترى. كأنهم يعرفون هذا المشهد عن ظهر قلب.

واحد منهم همس لي: "مبروك هلأ صرت منّا."

سألت بخوف:

"من أنتم؟"

قال: "نحن الظلال عشنا كثيرًا حتى نسينا النور."

ثم التفت للزاوية، حيث الجدار ينزف.

وأشار لي..رأيتُ شيئًا محفورًا على الحائط، بخط مرتجف:

"من دخل صيدنايا لا يعود إنسانًا."

ثم غفوت لا نومًا بل غيبوبة حياة.

"زنزانة رقم 9"

عندما يكون الانسان مجرد رقم

قالوا لي: "ستُوضع في الزنزانة رقم 9".

ثم سكتوا. لم يصرخ الجندي كعادته. لم يركلني في ظهري كما فعل مع غيري.

بل اقترب من أذني وهمس:

"لا تطل البقاء هناك... الناس بيصيروا يحكوا مع الحيطان."

ثم فتح الباب... ودفعني إلى الداخل.

الزنزانة رقم 9 لم تكن أكبر من تابوت.

لكنها لم تكن فارغة.

كان هناك أربعة رجال، جالسون كالتماثيل، بظهور منحنية، وأعين لا تنظر لأي شيء.

وحين دخلتُ، لم يرفعوا رؤوسهم.

كأنني لم أصل.

لكن كان هناك واحد منهم مختلف. كان جالسًا في الزاوية، يراقبني بعين واحدة.

عينٌ فيها شيء لا يُشبه الحياة.

سألته بصوت مبحوح:"أنا اسمي مالك..."

فردّ:

"أنا كنتُ اسمي هشام... لكن هنا، الأسماء تتحلل."

اقتربت منه، وجلست بجواره.

ثم قال:

"أنت طبيب، مو هيك؟ شفت إيدك... ما زالت نظيفة."

قلت:

"أنا جرّاح أعصاب... من حلب."

قال:

"حلو... العصَب هون ما بينشال بمشرط. بينكسر بالركل."

ثم نظر إلى السقف، وأغمض عينيه.

في اليوم الأول، رأيت أكثر مما رأيت في سنوات تدريبي.

شاب في الزنزانة، كان يُعاني من اختلاج عنيف.

كان جسده ينتفض كل عشر دقائق، يضرب رأسه بالحائط، ويتقيأ دماً.

اقتربت منه، وأمسكت رأسه.

صرخ أحدهم:."لا تلمسه! هاي عدوى الجن الأحمر!"

ضحكتُ من الألم، وقلت:

"هذا نوبة صرع... تركوه لحاله بيموت."

مزّقت قطعة من قميصي، وربطت بها فكه..ثم دلّكته، وضغطت على مراكز معروفة في العمود الفقري.

وبعد دقائق...

هدأ، ثم فتح عينيه، ونظر إليّ... كأنني قادم من كوكب آخر.

بعد تلك الليلة، صار لي اسم..صاروا ينادونني: "الطبيب".

وكلما مرض أحدهم، صاحوا باسمي.

كنت أستخدم ما بيدي:

قماش، دماء، أصابعي، الماء النتن، حتى البخار الذي يتكثف على الحائط...

لكن لم أستطع أن أنقذ الكل، ذات ليلة، مات "هشام"... ذاك الذي تحدث معي أول مرة.

كان يهمس لنفسه طوال الليل:

"الرقم تسعة فيه لعنة... كل من جلس هنا يموت بلا صوت."

ثم غفا... ولم يعد..دفناه بطريقتنا: سحبناه إلى الزاوية، وغسلنا وجهه بالعرق...

ثم أغلقنا عينيه بأصابعنا، وسكّتنا، لأن الهمس يُعاقب عليه هنا.

بعد أيام....حدث شيء لم أفهمه. فُتح باب الزنزانة فجأة.

دخل الجندي، ومعه رجل يرتجف، لكن ليس سجينًا... بل جندي صغير!

كان مصفوع الوجه، مبتور الأصبع. قال الجندي الآخر وهو يضحك:

"هذا عميل صغير حاول يهرب رسالة... خليه عندكن ليلتين."

ثم أغلق الباب.

كان اسم الطفل "كريم"، عمره 16 عامًا فقط.

كان جسده أنحف من العظام، وصوته لا يخرج إلا كهمس.

في الليلة الأولى، رأيته يحتضن الحائط ويبكي. اقتربت منه، ووضعت يدي على ظهره.

فجأة، صرخ. صرخة لم أسمع مثلها من قبل. ثم تراجع، وبدأ يضرب رأسه بالجدار.

صرخ أحدهم:."قلنا لك... الجدار هون بيسمع!"

في الليلة التالية، مات كريم..لكن موته كان غريبًا..لم يكن فيه سعال أو رجفة أو جرح.

بل فقط نام، ولم يستيقظ..كان جسده دافئًا....وعيناه مفتوحتين نحو السقف.

وحين أغلقناهما، سقطت دمعة... دمعة واحدة، وكأن قلبه بكى على حياته الضائعة.

في اليوم الثلاثين داخل الزنزانة رقم 9...

استيقظت في منتصف العتمة، على صوت همهمة جماعية.

فتحت عينيّ...

ورأيت جميع الرجال، وجوههم نحو الجدار، يهمهمون كلمات غير مفهومة.

اقتربت... وسمعت:

"الرقم تسعة... تسعة... تسعة... تسعة..."

كأنهم يُصلّون لشيء غير مرئي. ثم... سكتوا. والتفتوا نحوي دفعة واحدة.

قال أحدهم:

"دورك اقترب يا طبيب...

اللي بيدخل الزنزانة رقم تسعة... بيصير منها."

"عيون زياد"

الفقدان اصعب شعور يعيشه الانسان في حياته

كل ما في هذا السجن يُشبه الفقد لكن زياد كان مختلفًا. كان لا يفقد شيئًا... لأنه ببساطة، لم يعترف أبدًا أنه يملك أي شيء.

منذ دخلت صيدنايا وأنا أسمع عنه.

"الشاعر"، "الولد المجنون"، "الذي كتب على الجدار قصيدة جعلت الحارس يبكي"، "المجنون الذي يرى الليل بلونٍ بنفسجي"...

لكنه لم يظهر أمامي حتى ليلة نقلوني إلى الزنزانة المقابلة.

رأيته يجلس على الأرض، عاري الصدر، يكتب شيئًا على الحائط... بدمه.

كانت زنزانته منفردة.

صغيرة، مظلمة، لكن كل من مرّ بها كان يهمس:

"هذا المكان... فيه كلام حيّ."

زياد... لم يكن يتحدث كثيراً.

لكن حين ينطق، تصير كلماته موسيقى حزينة تُجبرك على الإنصات.

في تلك الليلة، سمعته يقول:

"أتعلم؟

القصيدة التي لا تُكتب على الجدار... تموت.

والدم... هو الحبر الوحيد في صيدنايا."

اقتربت من باب زنزانته، وقلت:

"ما اسمك؟"

قال:

"كنتُ زياد... لكن في هذا المكان، أنا القصيدة."

كان عمره عشرين عامًا.

طالب في كلية الآداب، تم توقيفه لأنه كتب منشورًا شعريًا ضد الحرب.

قالوا: "يحرض على الثورة".

قال زياد لاحقًا:

"لم أكتب ثورة... بل كتبت حبًّا.

لكنهم رأوا في الحبّ جريمة... فحبسوني."

كل ليلة، كان زياد يُنشد شيئًا. بصوت منخفض، يتسلل بين الجدران، وكأنه صلاة لملاك أُهين.

ذات ليلة، سمعته يقول:

"في هذه الزنزانة...

زرعتُ زهرة من الخيال...

سقيتها بألم السجناء...

وقلتُ لها: لا تموتي قبلي."

ثم سكت...

ثم ضحك، ضحكة من فقدَ كل شيء ولم يبقَ له إلا الشعر.

أكثر ما أدهشني... أن بعض الحراس صاروا يمرّون ليلًا، فقط ليسمعوا صوته.

كان زياد يلقي القصائد كمن يتنفس..واحدة منها قالها يوم مات أحد رفاقه، كانت محفورة على الجدار:

"نم الآن...

جسدك لن يُؤلمك بعد اليوم...

والبرد لن يقضم أصابعك...

النور هناك... في آخر الظلمة."

قالوا إن الحارس "عاصم" بكى حين قرأها. لكنه أنكر، ثم عاقب زياد بـ"الوقوف المصلوب" ثلاث ساعات.

قال زياد بعدها:

"ليس سيئًا أن تقف كالمسيح... طالما أن الشعر ينزف منك لا منكسرًا، بل شاهقًا."

مرت الأيام... وزياد لم يتوقف عن الكتابة.

لكن الحيطان بدأت تضيق عليه.

حاولوا أن يمحوا كلماته بالماء، بالحجارة، بالكدمات. لكن كلما اختفت قصيدة، كتب غيرها بدم جديد. ثم جاء يوم...

لم يجد أحد قصائده في الزنزانة.بل وجدوها محفورة على لحم ذراعه.

قال له السجّان:

"أنت مجنون!"

فأجابه:

"لا... أنا أعيش أكثر من اللازم."

في إحدى الليالي، صرخ زياد..صرخة واحدة فقط، مزّقت كل شيء.

ركض الحارس، فتح الباب، وجده واقفًا، ويده تنزف.

قال له:

"ليش عملت هيك؟"

فقال زياد:

"نسيت بيت الشعر... فكتبته على جلدي قبل أن أنساه."

زياد...

الولد الذي لم يمت.

بل صار شبحًا شعريًا، يتمشى بين الزنازين، صوته فقط يُسمع، لكن لا أحد يراه.

قال لي أحدهم:

"إذا سمعت قصيدة في الليل... لا ترد..فقد تكون قصيدة زياد الأخيرة.أو قد تكون أنت."

الشيخ والصليب"

الحكمة نعمة غير موجودة عن الكل

كانوا يقولون عنه "الشيخ"، رغم أن اسمه الحقيقي بقي مجهولًا للجميع.
دخل الجناح الأحمر في الشتاء، وكان يحمل معه مصحفًا صغيرًا مطوّيًا في قطعة قماش، أخفاها في باطن حذائه.

لم يكن كثير الكلام، ولا كثير الصلاة، لكنه حين يقرأ...
كان السجناء يصمتون. حتى الحائط كان يصغي.
قالوا إنه كان إمام مسجدٍ في ريف دمشق، أُخذ من بين المصلين في ليلة مظلمة، لأنه رفض أن يدعو على من يخالف النظام.
قال:
"أنا أدعو على الظالم... لا على المختلف."
وهذا كان كافيًا ليصبح عدوًا.
في الزنزانة، لم يكن الشيخ ينام كثيرًا.
كان يجلس بجانب كل من يبكي، يمسح جبينه، ويهمس:

"اصبر... كل هذا سيُنسى عند أول نفس في الجنة."
لكنه في الأسبوع الثالث، واجه أول اختبار من نوعٍ آخر.
دخل الزنزانة سجين جديد...

شاب صغير، عظامه بارزة، وجبهته مشقوقة، وعلى صدره وشم قديم لصليب صغير.

كان اسمه "ميشيل".

طالب طب في حلب. مسيحي.

حين رآه بعض السجناء، تراجعوا. بعضهم نظر له بعداوة، آخرون بصمتٍ مُرعب.

لكن الشيخ...

فتح له مكانًا بجواره، ووضع يده على كتفه.

وقال له بهدوء:

"هنا... لا مكان للطوائف.

نحن أهل سجن، ولسنا أهل فتنة."

في تلك الليلة، نُفّذ في السجن العقاب الجماعي.

قال الحارس: "أحدكم سبّ الضابط... كل الزنزانة ستُعاقب."

ثم دخلوا بخراطيم المياه الباردة، والضرب العشوائي.

كان "ميشيل" أضعفهم.

جسده لا يتحمّل، وكانت الكدمات القديمة ما تزال دامية.

حين بدأوا بجلده، تدخل الشيخ. وقف أمامه، فتح ذراعيه، وقال:

"هو مريض... خذوني أنا بداله."

ضحك أحد الجنود: "شيخ عم يدافع عن نصراني؟"

ردّ الشيخ:

"أنا أدافع عن إنسان... وهذا يكفي."

فضربوه حتى أغمي عليه.

في الليل، جلس ميشيل بجانب الشيخ، يمسح وجهه المدمى بقطعة قماش مبلّلة بالدموع.

وقال له بصوت مرتجف:

"لماذا فعلتَ هذا؟ أنا لا أُشاركك دينك..."

فأجابه الشيخ وهو يلهث:

"الله لا يسأل عن الطائفة أولًا... بل عن القلب."

بعد تلك الحادثة، تغيّر شيء في الزنزانة.

لم يعد هناك فرقٌ بين من يصلي للقبلة، ومن يرسم صليبًا وهميًا على صدره في الظلام.

الشيخ وميشيل صارا وجهين لعملة واحدة.

كانا يهمسان معًا... يتشاركان قطعة الخبز، يرويان ذكريات من أيام "الهواء".

وكلما سألهم أحد:

"كيف تتحملون هذا الجنون؟"

يقول الشيخ: "حين تتجاور الأديان في القهر تتحد الأرواح."

لكن الراحة في صيدنايا لا تدوم.ذات ليلة، فُتح الباب.

دخل الحراس، وقال أحدهم:

"وين النصراني؟ بدنا نوديه للتحقيق."

ميشيل انتفض.لكن الشيخ أوقفه، وقال: "خذوني أنا... هو مريض."

الحارس ضحك: "ما عدتوا تفترقوا إنتو التنين؟ خلينا ناخدكن سوا."

لم يعودا تلك الليلة. وفي اليوم التالي...

عُثر على جسد الشيخ مرميًا في ساحة التهوية.

مُغطى بقطعة قماش، وعلى صدره وشم غريب...

صليب صغير، محفور بمسمار.

قال من رآه:

"ميشيل هو من فعلها... كي يُعيد له الجميل." لكن لا أحد تأكّد.

فميشيل ، لم يُرَ بعدها أبدًا. منذ ذلك اليوم...

صار هناك دعاء يُتلى سرًّا بين السجناء:

"يا رب الشيخ...

احفظنا كما حفظَ الآخر... لا كما حفظَ نفسه."

"الملاك الأزرق"

الموهبة التي قد تدفن دون سبب

لم نصدّق عندما جاءوا بها.

امرأة بين الرجال، في ذلك المكان حيث يذوب الجسد وتتحلل الأرواح.

لم يكن لها اسم معروف، فقط أطلقوا عليها "الملاك الأزرق" بسبب ثوبها الأزرق الباهت الذي لم يبتلّ بعد.

كانت هادئة، لا تكلم أحدًا،

لكن نظراتها كانت تحفر في قلوبنا كأنها تعرف كل شيء، وحتى الأسرار التي نفضل دفنها في الصمت.

كانت ليلة دخولها ممطرة، والبرودة تسكن العظام.

لكن رغم كل شيء، كانت هناك حرارة غريبة تملأ الزنزانة،

كأنها نار لا تحترق، ولكنها تحرق الداخل.

دخلت الزنزانة الجديدة، ونظرت إلى الجميع، ثم قالت بصوت هادئ:

"أنا هنا لأعيش، ليس لأموت."

مرت الأيام، وأصبح وجودها كنسمة خفيفة في هذا المكان المظلم.

كانت تساعد المرضى، تطبب الجروح، تهمس بكلمات تخرج من قلبها...

كلمات غير معتادة في هذا الجحيم.

في إحدى الليالي، سمعت صوتها يقرأ:

"في قلب الظلام يولد النور، وفي صمت الألم تنمو الزهور."

كانت تكتب في زاوية صغيرة، رسمت لوحة زرقاء على الجدار، تلمع في عتمة السجن،

كانت تلك اللوحة واحة صغيرة، لكنها اختفت فجأةً كما لو أنها لم تكن.

لكن وجودها لم يمر بلا مشاكل.

لم يستسغ الحراس فكرة أن تكون امرأة بينهم، وأن تحمل شيئًا من الرحمة.

ذات يوم، جاءت "الزيارة" التي غيرت كل شيء.

دخل الحراس الزنزانة، وقالوا لها:."الوقت حان لتغادري."

نظرت إليهم ببرود، وقالت: "أنا لست ضيفًا هنا.. أنا جزء من هذا الألم."

لكنهم لم يكترثوا. أخرجوها بالقوة، وسحبوها نحو الغرفة المعزولة.

كانت الغرفة صغيرة، مظلمة، وباردة كالثلج. هناك، سمعت صرخاتها الأولى.

صرخات لم يكن لها صدى في ارجاء السجن هي ماتت من شدة التعذيب

في اليوم التالي، لم تظهر مجددًا.ظلكن كلماتها بقيت تردد بين السجناء:

"ابقوا أحياء... مهما كلف الأمر."

وحتى الآن يقول البعض إن "الملاك الأزرق" ما زال هناك،

يراقب، يساعد، ويرسل رسائل أمل...

حتى وإن كانت أنينًا في صمت لا يسمعه إلا من فقد كل شيء.

التابوت الحديدي

عندما تدفن في مكان لا يدفن فيه بشر

كانت زنزانة رقم 6 من أكثر زنازين السجن رعبًا وغموضًا. لم تكن مساحتها الكبيرة سببًا لتهدئة قلوب من يقبعون فيها، بل كان ما بداخلها من أدوات وأسرار هو جحيم لا يُطاق.

في قلب الزنزانة، يقبع التابوت الحديدي، صندوق ضيق يغلق على من يوضع فيه كأنه قبرٍ من حديد. ليس مجرد وسيلة للعزل، بل هو آلةٌ لتكسير الروح قبل الجسد.

وصل "يوسف"، فتى لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، إلى زنزانة رقم 6 في إحدى ليالي الشتاء القارس. كان جسده نحيلًا، وعيناه تحملان مخاوف كثيرة غير مألوفة في هذا المكان. رغم صغر سنه، كان يحمل ثقل العمر في قلبه، وجراح الغربة والحرمان التي لم تعرف حدودًا.

اقتادوه نحو التابوت الحديدي، وصوت الباب المعدني يصدح في الصمت كأنه ناقوس موت.

قال له أحد الحراس بصوت خشن:

"دخولك هنا ليس كباقي السجون، يا يوسف. انتبه لأنك في عداد الموتى."

تردد يوسف للحظة، ثم همس لنفسه:

"إذا كان هذا هو القدر، فسأواجهه."

كان التابوت ضيقًا لدرجة أنه أجبره على أن يطوي جسده ليتمكن من الجلوس بداخله. البرودة المعدنية تغلفه كأنها تعانقه بقسوة، والهواء يختنق داخل الصندوق، لكنه تماسك وصمت.

في الظلمة، بدأ يسمع صدى أنفاسه وأوجاع قلبه، فاستحضر ذكرى أمه التي كانت تقول له دومًا:

"القلب القوي لا يستسلم، يا يوسف."

مرّت الساعات ببطء قاسي، وتكررت الذكريات في ذهنه؛ ضحكات أخته الصغيرة، صوت أصدقائه، ورائحة الخبز الطازج من بيت الطفولة.

وفي عزلته، بدأ يهمس لنفسه بصوت خافت، يردد كلمات أمه كتعويذة:

"أنا قوي... لن أكسر."

لكن الوحدة كانت أكثر قسوة من كل شيء، وأحيانًا كانت تقتل كل ما تبقى من أمل.

في تلك الزنزانة المعتمة، وقبل أن يغلق الباب عليه بإحكام، لاحظ يوسف نظرات الحراس القاسية، واللامبالاة التي تختبئ وراءها. شعر بأنه ليس فقط محاصرًا داخل التابوت، بل داخل قفص من الألم والظلم.

وسط الظلام والبرد، حاول يوسف أن يتحسس الجدران الحديدية بيده المرتجفة، وكأنه يبحث عن طوق نجاة، أو ربما عن نقطة ضعف في هذا الجحيم المعدني.

في هذه اللحظات، كان صدى همسات السجناء الآخرين يصل إليه من خلال الحيطان، نداءات مكتومة، وصراخات لا تصل إلى أذنه سوى عبر الذكرى والألم.

تذكر حين سمع من زميل له في زنزانة أخرى:

"التابوت مش بس عزل، التابوت هو بداية النهاية."

لكن يوسف رفض أن تستسلم روحه. وأقسم في سره أن يخرج من هنا يومًا ما، ليس فقط بجسده، بل بروحه التي تحررت من الخوف.

مرت الساعات، والظلمة تحيط به من كل جانب، حتى بدأ يشعر بأن صدى أنفاسه يتراقص معه، كأنما هو صديقه الوحيد في هذا القبر الحي.

مرت ساعات الوحدة داخل التابوت الحديدي، كانت تبدو وكأنها قرون من الزمن. جسد يوسف بات يشتعل ببرودة المعدن التي تحيط به، لكن روحه كانت تتحدى كل شيء.

سمع صوت خطوات تقترب، أثارت في صدره توترًا لم يكن يعرف له سببًا، لكنه رفض أن يستسلم للخوف. بدأ يهمس في نفسه كلمات قد حفظها عن ظهر قلب:

"القلب لا يكسر إلا إذا سمح له أن يُكسر."

فتح باب التابوت بصرخة حادة، وأطل الحارس الذي كان يراقب تحركاته. قال له ببرود:

"كيف ما زلت حيًا بعد كل هذا؟"

ابتسم يوسف رغم التعب، وقال بنبرة ملؤها التحدي:

"أنا أقوى مما تعتقد."

بعد أن تم إخراجه، نُقل يوسف إلى زنزانة أخرى، لكنه لم يعد كما كان. عزل التابوت لم يكسر جسده فقط، بل كاد أن يُمزق روحه.

جلس وحيدًا في الزنزانة، وأغمض عينيه محاولاً أن يعيد ترتيب أفكاره.

رغم كل ما تعرض له، كان يردد بصوت منخفض:

"لن أسمح لهذا المكان أن يسرق مني إنسانيتي."

في الأيام التي تلت، بدأ يوسف يكتب في زاوية صغيرة من الزنزانة، كلماتٍ كانت كأنها أشعة ضوء تخترق الظلام:

"في قلب الظلمة، يولد النور.

وفي أعمق الألم، تجد الحياة نفسها."

ذات يوم، اقترب منه أحد السجناء الأكبر سنًا، وبتنهيدة قال:

"يا يوسف، لقد سمعت عنك... عن صمودك.

قليل منّا من ينجو هنا بسلام في الداخل."

رد يوسف بابتسامة حزينة:

"السلام هنا حلم بعيد، لكني أحتفظ به في قلبي."

مرت الأيام، وأصبح يوسف رمزًا للصمود بين السجناء، ليس فقط بجسده الذي تحمل الألم، بل بقلبه الذي رفض الاستسلام.

كان ينظر إلى الشباب الأصغر منه، يهمس لهم:

"كلما شعرت بالضعف، تذكر أن القلب أقوى من الحديد."

وفي آخر لقاء له مع الحارس الذي أدخله التابوت، قال له بصوت متهدج:

"كنت أظن أنني سأكسرك... لكنك كسرْت جدار الخوف بداخلي."

ابتسم يوسف وقال:

"الإنسان لا يُكسر إلا إذا فقد الإيمان بنفسه."

"التمرد الصامت"

الضعف وهن ما بعده وهن

حيث تلتقي الظلمة بالوحدة، وأحزان السجناء تعانق جدران الصمت، ولدت فكرة تمرد... ليس بالصراخ، بل بالصمت.

كانت فكرة من رجل صغير في السن، اسمه "رامي"، شابٌ صلبٌ، رغم كل ما عاناه، يحمل في قلبه نيران الحرية.

ذات مساء، اجتمع رامي مع عدد من السجناء الذين لم تعد تجمعهم سوى صرخة مشتركة: الكف عن الكلام.

لم تكن مجرد صرخة صمت، بل كانت ثورة داخلية، رفضًا للألم، رفضًا للتعذيب اللفظي، ورفضًا لأن تكون الكلمات أداة جديدة للقتل.

قال رامي بحزم:

"لن نتحدث، لن نعطيهم فرصة ليجرحونا بألسنتهم.

الصمت هو سلاحنا، والتمرد هو فينا."

في البداية، كانت الصمت صعبًا على الجميع.

لكن مع مرور الأيام، تحوّل الصمت إلى لغة جديدة، وفهمها الجميع دون أن يحتاجوا للكلام.

في الزنزانة، لم يعد هناك شتائم، ولا صراخ، فقط نظرات تتحدث، وقلوب تنبض بصمت قوي.

أثار هذا الصمت الغريب قلق الحراس، الذين لم يعهدوا هذا النوع من التمرد.

ذات يوم، دخل الحارس "عاصم" إلى الزنزانة، ووجدها صامتة كأنها قبور.

قال بغضب:

"شو هالصمت؟ ما تفهموا؟ الكلام سلاحنا، وأنا هنا لأسمعكم!"

رد عليه أحد السجناء بنظرة ثائرة، لكن الصمت بقي.

مع مرور الوقت، بدأ الحراس يضيقون الخناق، يستخدمون أساليب قمع جديدة لكسر هذا الصمت.

حاولوا الحرمان من الطعام، والضوء، وحتى النوم، لكن الصمت بقي صامدًا.

في ليلة مظلمة، اجتمع السجناء حول "رامي"، وقال بصوت خافت:

"الصمت ليس هروبًا، بل هو صرخة أعظم من كل الكلمات.

لا تدعوا الألم يسرق صوتكم... دعوه يعلو بالصمت."

لكن الحراس لم يرضخوا، فبدأت الضربات تنهال، وترد الصمت بنبضات قلوب تنبض بالألم.

في أحد الأيام، كان "رامي" آخر من يصمت، سقط مغشيًا عليه، لكن روحه لم تسقط.

كان هذا التمرد بمثابة رسالة لكل من لا يرى الألم إلا بالصراخ، أن أحيانًا، يكون الصمت أبلغ لغة.

وفي نهاية القصة، رغم سحق التمرد، بقي الصمت شاهدًا حيًا على وجعهم وألمهم.

أغنية خلف الحائط

احيانا صعب ان تصل الى حلمك

الزنزانة المعزولة حيث الظلام يُخيم والوقت يبدو وكأنه متوقف، كان هناك شيء مختلف يُسمع أحيانًا... صوت نقر خافت يأتي من خلف الجدران الصدئة.
هذا الصوت كان يحمل في طياته حياة خفية، رسالة سرية ترفض الموت.

كان "فارس" الحارس السري، رجلاً في أواخر الأربعينيات، يعمل في الظل، بعيدًا عن أعين زملائه الذين غُرِقوا في القسوة والجمود.
فارس كان يحمل هموم من نوع آخر، لم تستطع القسوة أن تطمسها.

ذات يوم، وبينما كان جالسًا في الممر، لاحظ حركة غريبة من داخل الزنزانة رقم 12.
سمع نقرات متقطعة، تختلف في الإيقاع، كأنها رسالة مرسلة عبر الزمن.
اقترب بصمت، وهمس:
"من هناك؟"
رد صوت ضعيف من الداخل:
"أنا سامر... أرسل لك رسالة من خلف الجدار."
سامر كان سجينًا شابًا، حكم عليه ظلماً، لكنه لم يستسلم.

بدا أن سامر يستخدم طريقة قديمة للتواصل، عبر نقرات على الجدار، بنظام يشبه شفرة مورس.فهم فارس الرسالة، وكان يرد بنفس الطريقة،

وبدأا يتبادلان الأخبار والرسائل الصغيرة التي تحمل الأمل والتمرد.

في كل ليلة، كان فارس يتسلل إلى المكان نفسه ليستقبل نقرات سامر، ويحكي له عن العالم الخارجي، عن حياة لا تزال تنتظره.كان هذا التبادل سراً مقدسًا بين رجلين في عالم بلا رحمة.

مرت الأيام، وازداد التواصل بين فارس وسامر، لكن هذا الاتصال كان خطرًا، فقد بدأ الحراس الآخرون يشتبهون.في إحدى الليالي، وبينما كان فارس يهمس: "الصبر مفتاح الفرج..."

سمع خطوات تقترب بسرعة، وصرخات تحذر من اكتشاف السر.

حاول فارس إخفاء نفسه، لكن الصوت داخل الزنزانة استمر بالنقر، كأنه يقول: "لا تيأس... نحن هنا... صوتنا أقوى من الصمت."

تعرض فارس للعقاب، لكنه لم يكسر.

ظل ينقل رسائل سامر عبر وسائل أخرى، حتى وصل بعضها إلى الخارج، حيث كانت عائلات السجناء تنتظر بصبر أخبار أحبائها.

كانت "أغنية خلف الحائط" ليست مجرد نقرات، بل كانت نبضًا للحياة، شعلة أمل في مكان لا يعرف الرحمة.

ابن الضابط

منصبك يمكن ان يوصلك للهلاك

في الزنزانة الصغيرة ذات الجدران المتشققة والرائحة الخانقة، جلس "كمال" وحيدًا على الأرض الباردة، يدير عينيه بحذر، محاولًا أن يخفي ما تخبئه روحه من خوف وحيرة.

هو ليس كأي سجين آخر هنا، فهو "ابن الضابط".
هذا الوصف وحده حمل عليه عبء ثقيلًا لم يره أحد، عبء جعل الآخرين ينظرون إليه كعدو قبل أن يعرفوه.
كان كمال شابًا في مقتبل العمر، جسده نحيل وعيناه الواسعتان تحملان وهجًا غير مفهوم في هذا الظلام.
لم يختار أن يكون ابنًا لمن هو عليه، لكنه دفع الثمن وحده، ثمن الخيانة التي لم يرتكبها.

في الأيام الأولى لاعتقاله، كان صوت الهمسات يتردد حوله:
"ابن الخائن... لن تكون منّا."
كان يعاني من كل كلمة، لكنها لم تكسر روحه. كان يعرف أن هذا ليس سوى بداية رحلة طويلة مع الألم، مع الصراع الداخلي بينه وبين نفسه، وبينه وبين من حوله.

تذكر لحظة اعتقاله، كيف كان يشعر أن الأرض تهتز تحت قدميه، وكيف نظر إلى السماء لأول مرة منذ أيام طويلة، وقال في صمت:

"هل ستنصفني الحياة يومًا؟"

ومع مرور الأيام، بدأت تعاوده ذكريات والده، ضباط النظام، الوجه الذي رآه صغيرًا مليئًا بالصلابة والخوف في نفس الوقت.

كيف سمع أن والده انشق، وكيف صار اسمه لعنة تطارد عائلته.

كان "كمال" يعيش في صراع دائم بين رغبة في نسيان ماضيه، وبين الرغبة في إثبات نفسه كإنسان مختلف.

وفي إحدى الليالي، حين كانت الزنزانة تكتنفها سكينة قاتلة، اقترب منه رجل مسن من زنزانة مجاورة يُدعى "حسين"، قال له بهدوء:

"يا ولدي، لا تحمل وزر ما ليس لك،

أنت حر في أن تخلق طريقك."

كمال نظر إلى "حسين" بعينيه اللتين لم تعدا تخفيان دموعًا، وقال:

"لكن كيف؟

كيف أكون أنا، وليس ظل والدي؟"

كانت هذه الكلمات بداية لرحلة جديدة في قلب السجن، رحلة تعلم فيها أن الهوية ليست مجرد اسم، بل هي أفعال، اختيارات، وإرادة.

مرت الأيام، وكمال يمر بصراعات داخلية أشدّ من أي عقاب جسدي.

كان يعاني من الوحدانية التي تزرعها النظرات المريبة، وأصوات الهمسات التي تلاحقه أينما ذهب.

لكن شيئًا غريبًا بدأ يحدث داخله، فكرة صغيرة تزداد قوة، تقول له:

"أنت لست مجرد ابن والدك، أنت كيان قائم بذاته."

في أحد الأيام، اقترب منه "سليم"، شاب في مقتبل العمر، يحمل عبء ظروفه الخاصة، لكنه وجد في كمال شيئًا مختلفًا.

جلسا معًا على الأرض، وتحدثا عن الألم، عن الخوف، عن الإيمان.

قال سليم بنبرة هادئة:

"نحن هنا جميعًا ضحايا، لكننا أحرار في داخلنا."

رد كمال بنظرة تعكس مزيجًا من الألم والأمل:

"أريد أن أكون أكثر من مجرد رقم، أكثر من مجرد ابن... أريد أن أكون أنا."

وبينما كانت الأيام تمضي، بدأت علاقة الصداقة تنمو بينهما، تحمل في طياتها وعدًا بالنجاة، ولو من الداخل.

في لحظة من الهدوء، جلس كمال يفكر في حياته قبل السجن، في والده، في القرارات التي غيرت مسار العائلة.

تذكر كلمة والده الأخيرة له قبل الاعتقال:

"ابقَ قويًا، مهما حدث."

وبهذه الكلمات، بدأ كمال يبني نفسه من جديد، حاملاً في قلبه شعلة أمل صغيرة، رغم كل العتمة حوله.

صلاة بلا وضوء

البصيرة اقوى من البصر لمن ملكها

كانت رائحة الملح تملأ المكان، تلتصق بالجلد كما لو كانت تهدف إلى إذابته قطعة قطعة.

حسن كان ملقى على الأرض، جسده يرتعش تحت وطأة الألم، عاريًا إلا من آثار التعذيب التي كسرت جلده وأشعلت عظامه.

الظلام كان خانقًا، لكنه كان أكثر رحمة من ذلك الحوض المعدني، المليء بماء مالح بارد، الذي غمره حتى الرقبة، يغسل جسده بلا هوادة، يذيب اللحم ببطء، وكأن الزمن يتباطأ ليزيد من معاناة كل لحظة.

حاول أن يرفع يديه إلى السماء، محاولًا أداء الصلاة، لكنه لم يستطع حتى أن يغسل وجهه أو يبلل شفتيه، لأن الماء المالح كان يحرق كل جزء من جلده.

صرخة الألم التي لم يصرخ بها من فمه، كانت تعلو من قلبه، يئن تحت وطأة الوجع، لكنه بقي محافظًا على صلاته في روحه.

اقترب الحارس عاصم، بنظرة باردة لا تعرف رحمة، وابتسامة ساخرة على شفتيه.

قال بصوت خشن:

"هل تظن أن هناك صلاة هنا؟ لا وضوء بلا دموع، ولا صلاة بلا ألم."

وضع قدمه على صدر حسن ليمنعه من الحراك، وزاد الضغط كما لو كان يحاول سحق روحه، ليس جسده فقط.

حسن حاول أن يثبت نفسه، تمسك بالألم كأنه نبع للحياة، رغم كل ما بدا وكأنه يُذوب في ذلك الحوض القاسي.

مرت ساعات طويلة، وكل ثانية كانت تعادل سنين من العذاب، حيث كانت عظامه تتكسر في صمت، وعضلاته تُهرس تحت أدوات الحراس.

كان الألم جسديًا فقط؟

لا، كان هناك ألم داخلي أخطر، ألم النفوس التي انطفأت، ألم القلب الذي صُودرت حريته، ولكن رغم كل شيء، ظل حسن متمسكًا بصلاة بلا وضوء، برمز الأمل في بحر من الظلام.

مرت الأيام، وبدأ جسد حسن ينهار أكثر فأكثر،

لكن روحه بقيت تشع بصمتٍ متماسك، كما لو كانت تضغط على الألم بعزيمة لا تلين.

كان يُقاسَم آلامه مع أصوات القلق المكتومة، والدموع التي تسيل بصمت في أرجاء الزنزانة، حيث لا صوت سوى همسات الأمل.

ذات ليلة، وبينما كان الحراس يعيثون فسادًا في الممرات، تجمع عدد من السجناء حول حسن، الذين عرفوا أن صلاته ليست مجرد طقوس، بل ثورة صغيرة من الإيمان في قلوبهم.

اقترب منهم رجل مسن بحذر، وقال بصوت متهدج:

"هذه الصلاة بلا وضوء... هي صلاة النفس قبل الجسد،

دعونا نشاركها ونصلي معًا."

وبينما كانت الأصوات ترتفع في الصلاة، بدا أن جدران الزنزانة تهتز بنبض الحياة، كأنها تحاول أن ترفض الظلام، وترفض أن تُخمد نور الإيمان.

وفي لحظة ضعف، جاء الحارس عاصم يراقب، وعيناه تحملان مزيجًا من الغضب والارتباك.

قال له بصوت مشوش:

"كيف لم تكسر؟ كيف بقيت؟"

ابتسم حسن، وقال بثقة:

"الإنسان أقوى من الألم، والروح لا تُكسر."

في ذلك المشهد، كان واضحًا أن هناك شيئًا أكبر من الألم،

شيئًا لا يمكن للحديد والملح أن يذوبه: قوة الإيمان،

وصلاة بلا وضوء، لكنها كانت صلاة الحياة.

كسر العظم

لا أمل بعد اليوم فكل شيء تحطم

في الزنزانة الضيقة التي كانت تفتقر إلى الضوء والهواء النقي، جلس "جميل" وحيدًا، محاطًا بصمت يثقل الأجواء كأنها جدران من حديد لا تسمح للروح أن تنجو. جسده كان محطمًا، ويده اليمنى التي اعتادت أن ترسم لوحات تحكي عن الحياة، كانت الآن ملفوفة بضمادة قطنية تكسرت عظامها تحت وطأة التعذيب الوحشي.

كان التعذيب لا يهدف فقط إلى كسر الجسد، بل كان يطمع في تحطيم الروح والإبداع الذي حمله جميل في قلبه. ضربات الحراس كانت تصل إلى العظم، كل كسر كان كأنه نصل يغرس في عمق إنسانيته، لكنه رفض الاستسلام.

في كل يوم، كان جميل يجلس بهدوء بين الصرخات والتكسر، يحول آلامه إلى خيال فني، يرسم بأصبعه خطوطًا على جدار الزنزانة، يحاول أن يعبر عن الحكاية التي لا يمكن للكلمات أن تحكيها.

كان يرسم أشكالاً مبهمة، تشبه العظام المتكسرة، أو يد تحمل قلمًا لا يتوقف عن الكتابة رغم الألم.

في إحدى الليالي، دخل الحارس "رائد"، وهو يراقب جميل بنظرة شاردة.

قال له بصوت منخفض:

"لماذا تصر على أن ترسم هنا؟ ألم تعلم أن هذا سيزيد من عقابك؟"

ابتسم جميل وهو يجيب بصوت هادئ لكنه قوي:

"لأن الرسم هو طريقي للنجاة، رغم كل شيء."

مرّت ساعات طويلة، وكان الألم يتصاعد في كل جزء من جسده، لكن جميل وجد في التعبير الفني ملجأً، قوةً تخفف عنه وطأة الواقع القاسي.

في ذلك المساء، جلس جميل على الأرض الباردة، ويده اليمنى المكسورة تئن من الألم. لكن روحه كانت أقوى من أي ألم جسدي. أتى إليه السجين "فهد"، رجل في منتصف العمر، يحمل نظرة حزينة ممزوجة بحكمة مكتسبة من سنوات الألم.

جلس بجانبه بحذر وقال:

"جميل، أنت تحوّل الألم إلى فن. هذا شيء لا يملكه الجميع. كيف تصنع من كل كسر قصة؟"

نظر جميل إلى فهد، وأجاب بهدوء:

"الألم بالنسبة لي ليس فقط عذابًا، هو لغة. كل كسر في عظمي يحكي قصة إنسان محاصر في جسد محطم. أرى الألم بعيون مختلفة، كأنما ألتقطه بريشة بدلاً من آلة تعذيب."

أكمل فهد بفضول:

"هل تستطيع أن تخبرني عن آخر لوحة رسمتها هنا؟"

ابتسم جميل، ورسم بيده إشارة صغيرة على الجدار وقال:

"لوحة ليست بالألوان، بل بألمٍ ونورٍ مختلطين. هي يد مكسورة، لكنها ترفع قلمًا نحو السماء. هذه اليد تمثل كل إنسان في هذا المكان، محطم لكن لا يزال يحلم."

ثم تابع:

"أحيانًا أتخيل لو أن هذه العظام تتحرك، تُعيد ترتيب نفسها لتخلق شيئًا أجمل. شيئًا من الأمل وسط الخراب."

في تلك اللحظة، جاء الحارس "رائد" مرة أخرى، وسمع الحوار.

تقدم باتجاههم بغضب وقال:

"كفّوا عن هذه الهراءات! الفن لا يُطعم ولا يُشفى، أنتم هنا لتموتوا بصمت!"

رد جميل بثبات:

"ربما نحن نموت بصمت، لكن أرواحنا تصرخ بألوان لا تقدر على رؤيتها.

صمت الحراس، لكن تلك الكلمات لم تُمحَ من أذهانهم، كأنها سهم اخترق جدار القسوة.

مرت الأيام، وكان جميل يرسم بأطراف أصابعه، ينحت قصصه في الجدران، وفي كل كسر يتنفس الحياة، وفي كل ألم يتحدى الموت.

في الزنزانة ذات الإضاءة الخافتة، جلس جميل مرهقًا، يلامس جدار الزنزانة بيده المكسورة، كأنه يحاول أن ينقل إليه نبضات روحه المتعبة.

تقدم نحوه زميله "سليم"، شاب يحمل في عينيه أملًا رغم الألم، وجلس بقربه متأملًا كل خطوط التعب على وجه جميل.

قال سليم بنبرة هادئة:

"جميل، أتعلم؟ رغم كل ما رأيته هنا، هناك شيء فيك يُلهمني أن أتمسك، أن لا أسمح للألم أن يبتلعني."

ابتسم جميل رغم التعب وقال:

"أنا لا أقاتل الجسد فقط، بل أقاتل فقدان نفسي، أفقد حريتي إن تخلى عني الفن."

أشار إلى يده المضمومة وقال:

"كل كسر هنا، هو صرخة مني للعالم: هذا الجسد قد يُكسر، لكن الإبداع لا يُقتل."

في تلك اللحظة، اقترب الحارس "رائد" مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت نظرته مختلفة، ربما بدأ يفهم ما لا يمكن قوله بصوت عالٍ.

قال بصوت أقل حدة:

"أنت تعيش في عالم آخر يا جميل، عالم لا يفهمه الناس هنا."

رد جميل بهدوء:

"ربما، لكن هذا العالم هو ما يبقيني حيًا. هو السلاح الذي أقاتل به الظلام."

بدأت الزنزانة تصبح مسرحًا لصراع أكبر، بين الألم الذي يحاول تكسير أجسادهم، وبين الإبداع الذي يحيي نفوسهم،

جميل أصبح رمزًا لأولئك الذين يرسمون الألم بألوانه الحقيقية، ويصنعون من العظام المكسورة قصائد صامتة.

مرت الأيام، وأصبح جميل محاطًا بمجموعة صغيرة من السجناء الذين وجدوا في فنه ملاذًا، ووسيلة للتعبير عن ألمهم المكبوت.

كل مساء، كانوا يجتمعون حوله، يستمعون إلى قصصه، يرون في رسوماته انعكاسًا لواقعهم المظلم.

في إحدى الأمسيات، اقتربت منه "ليلى"، امرأة شابة كانت تُنقل بين الزنازين، تحمل حزنًا عميقًا في عينيها.

جلست بجانبه وهمست:

"جميل، كيف تستطيع أن تحتمل كل هذا الألم؟ كيف لا ينهار قلبك؟"

نظر إليها بابتسامة حزينة وقال:

"ليلى، الألم هنا هو الحقيقة الوحيدة، لكن الفن هو الطريقة التي أقول بها للعالم: أنا لا زلت هنا."

أكملت ليلى بتأثر:

"أريد أن أتعلم كيف أرسم الألم، ربما يساعدني على تحمّل ما أعيش."

بدأ جميل يعلم ليلى بعض أساسيات الرسم باستخدام الفحم المتبقي، وكانت كل خطوطها على الجدار تحكي قصة مختلفة، قصة امرأة تحارب من أجل البقاء وسط الخراب.

كانت هذه اللحظات النادرة من الإنسانية بمثابة واحة صغيرة في صحراء الألم، تذكير لهم جميعًا بأن الروح تستطيع أن تزهر رغم أقسى الظروف.

وفي إحدى المرات، دخل الحارس "رائد" الزنزانة، ونظر إلى تلك الرسومات، لم يستطع إنكار تأثيرها، لكنه أخفى مشاعره خلف قناع الغضب، وقال:

"هذا ليس مكانًا للفن، هذا مكان للعقاب!"

رد جميل بهدوء وبصوت قوي:

"هذا هو المكان الذي يصبح فيه الفن سلاحًا،

وسلاحنا الأخير ضد العتمة."

تلك الكلمات تركت أثرًا في الحراس، وربما لأول مرة بدأوا يرون خلف الجدران،

تلك الروح التي لا يمكن لأدوات التعذيب أن تكسرها.

في صباح قاتم، استيقظ جميل على صوت خطوات ثقيلة تقترب من زنزانته،

كانت هذه الخطوات تحمل في طياتها شرًا جديدًا.

دخل الحراس، يحملون أدوات خشنة، دون أن يلفت انتباههم أي شيء في حالة جميل المنهكة.

وقفوا حوله، وأمسكوا بيده المكسورة التي كانت تتألم حتى من لمسة النسيم، لكنهم لم يبالوا.

بدأ التعذيب بحركات عنيفة، تمزج بين الكسر والطحن،

أخذوا يضغطون على عظام يده ببطء، حتى بدأت العظام تتفتت كفتات صغيرة تتساقط على الأرض.

كان الألم يفوق الوصف، كل قطعة من عظمه المتفتت كانت تسرق جزءًا من روحه، لكنها في الوقت نفسه كانت تخلق في داخله عزيمة أكبر.

صرخ جميل بألم لا يمكن للكلمات أن تصفه،

لكن الحراس لم يتوقفوا، كانوا يرون في سحق العظام طريقة لإذابة إرادة الإنسان، وكسر آخر صلة له بالعالم الخارجي.

في وسط هذا الألم، حاول جميل أن يرسم في ذهنه صورة يده التي لم تعد ملكًا له،

تحولت إلى فتات، لكنها كانت فتات الأمل التي لن تُمحى.

مرّت دقائق طويلة، وكل ثانية كانت تساوي حياة كاملة من المعاناة،

لكن في النهاية، سقط جميل على الأرض، جسده منهك وروحه مصممة على النضال.

بعد أن ابتعد الحراس، حاول أن يرفع يده المشلولة، وغمض عينيه، فكر في لوحاته التي لم ترَ النور،

وفي الألم الذي سيصنع منه قصيدة خالدة.

عاصم

فوق كل صخرة قد تنبت زهور

في ممرات السجن المظلمة، حيث الأبواب الحديدية تصدر صريرًا كأنها تنفث آهات الأسى، كان "عاصم" يمشي بخطوات ثابتة، لكنه يحمل ثقلًا لا يُرى على كتفيه.

وجهه الذي طالما اعتُبر قاسيًا، بدأ يتلوّن بخطوط الضعف والخوف.

عاصم، الرجل الذي أُوكل إليه تنفيذ الأوامر بلا نقاش، كان في داخله صراع مرير.

في أعماقه، لم يكن هو ذلك الوحش الذي يراه الجميع، بل كان إنسانًا محطمًا بين فكي نظام لا يرحم.

في إحدى الليالي، وقف وحيدًا في زاوية الممر، ينظر إلى الأضواء الخافتة التي تنبعث من الزنازين، مستمعًا إلى أنين السجناء المختبئين خلف الأبواب الحديدية.

تمتم لنفسه:

"كم منهم هنا يعاني، وكم منهم لا يستطيع حتى أن يجد صوته؟"

فجأة، اقترب منه زميله في العمل "رامي"، وقال بحدة:

"عاصم، توقف عن التردد! نحن هنا لننفذ الأوامر، لا لنشفق على الضعفاء."

نظر عاصم إليه بصمت، ثم أجاب بهدوء مريب:

"لكن هل يكون تنفيذ الأوامر بلا قلب؟"

كانت تلك الكلمات تمثل بداية انقسام داخلي، بين ما يُطلب منه وما يؤمن به.

كانت دموعه المكبوتة تترجم هذا الصراع بين الواجب والإنسانية.

كان ذلك اليوم مختلفًا عن كل الأيام التي سبقته،

فبعد أن وصل خبر تمرد صامت، تم القبض على "عاصم" نفسه، الحارس الذي طالما وقف على الطرف الآخر من السجن، صار اليوم ضحية لقسوة لا تُطاق.

في غرفة مظلمة، باردة، حيث الهواء مشبع برائحة كريهة وحامضة، وُضع عاصم مكبل اليدين والقدمين، أمام بركة صغيرة مملوءة بماء الأسيد الذي يذيب كل ما يلامسه بلا رحمة.

بدأ الحراس بسكب الماء الحامضي على جسده، بدأ الألم يزداد ببطء،
كأنه نار تتسلل إلى أعماق الجلد، تحترق الأنسجة، وتذوب اللحم، وكل جزء من جسده يصرخ في صمت لا يسمعه سوى روحه.

كانت عيناه تغلقان بقوة كلما ازدادت حرارة الألم، وكل نفس كان بمثابة صرخة مكتومة من الحلق.
بدأ جسده يتفاعل مع الحرق، الجلد يتقشر، يتفتت، والدم يتسرب إلى الماء الحامضي، مزيج من الأحمر والأسود.
في تلك اللحظات، لم يكن عاصم فقط يعاني الألم الجسدي،
بل كان يعاني من الذنب الذي تراكم في قلبه، من الندم على كل ما فعله، من الألم النفسي الذي كان أثقل من أي حرق.
صرخ في صمت، في داخل نفسه، يردد:
"لماذا؟ لماذا أكون أنا؟"

لكن حتى وسط هذا الألم العظيم، بقيت هناك شرارة خافتة في عينيه، شرارة تعبر عن رغبة في النجاة، في الخلاص.

مر الوقت ببطء شديد، وكل ثانية كانت كأنها حياة كاملة من المعاناة، حتى انتهى التعذيب، وسُحب عاصم من الماء الحارق، جثّة تئن تحت وطأة الألم، لكن روحه لم تُقتل.

العشاء الأخير

الوعود قد تكون كاذبة بنسبة كبيرة

في عمق السجن، حيث لا يفرق الليل عن النهار، كان "نبيل" جالسًا في زنزانته الصغيرة، يتناول ما تبقى من وجبته البسيطة التي لم تتغير منذ شهور.
لكن هذه الليلة كانت مختلفة، ثقيلة كأنها تمهيد لنهاية لا يعرفها.

لم يكن نبيل يعلم أن هذه الوجبة التي يأكلها هي وجبته الأخيرة،
ففي غرفة أخرى، كان الحراس يتحدثون عن أمر إعدام وشيك، لكنهم قرروا أن يجعلوا من إعدامه لحظة قاسية ومؤلمة للجميع.
بدأ الحراس بتنفيذ خطة غريبة، إذ أمروا مجموعة من السجناء أن يشاركوا في إطعام نبيل، دون أن يعلم هو الغاية من ذلك.
في البداية، كان السجناء يتبادلون النظرات والهمسات، كانت قلوبهم ترفض هذا الدور، لكن الخوف والحاجز النفسي الذي فرضته السلطة جعلهم يطيعون.

جلس نبيل مع من حوله، وأخذت أصواتهم تخفت، ووجوههم تشي بحزنٍ عميق، وهم يقدمون له الطعام،
كانوا يراقبونه بعناية، وكل لقمة كانت ثقيلة على قلوبهم أكثر مما كانت على معدته.
قال له "سامي"، أحد السجناء المقربين: "كل شيء سيكون على ما يرام، فقط تمتع بالطعام."

لكن الكلمات كانت كاذبة، والعيون تخبر غير ذلك.
وسط تلك اللحظات، بدأ نبيل يشعر بأن هناك شيئًا غريبًا،
تملكه إحساس قاتم لم يستطع تفسيره، لكنه لم يجرؤ على طرحه.

كانت الوجبة تتدفق بين أصابعه، وبين اللقمة والابتلاع، كان يحاول أن يبتسم،
لكن الدموع كانت تنساب في صمت.

بعد انتهاء الوجبة التي لم يكن نبيل يعلم أنها الأخيرة، بدأت لحظات الرعب
تتسلل إلى زنزانته كظلٍ قاتم.
دخل الحراس مرة أخرى، لكن هذه المرة، لم يكن هناك حديث أو تلميحات،
فقط صمت ثقيل يسبق العاصفة.
اقترب منهم "علي"، أحد الحراس، يحمل في يده علبة سجائر،
أمسك بنبيل من كتفيه بقوة، وأشعل سيجارة ببطء، ثم بدأ بتمريرها على جسد
نبيل،
ابتداءً من ذراعه، مرورًا بجسده، حيث كانت السجائر تحرق جلده ببطء،
ألمٌ حارق يتلوه صمت رهيب، وصرخات مكتومة تحاول الهروب من الصدر،
لكنها تقبع تحت وطأة الخوف والوجع.
أثناء الحرق، لم يكن نبيل يستطيع سوى البكاء بصمت،

دموعه لم تكن للضعف، بل كانت لليأس الذي بلع روحه،
لم يكن يعلم أن النهاية أصبحت على مقربة منه، في هذه الزنزانة الباردة، بين أيدي هؤلاء الذين خانوا الإنسانية.
بعد ساعات من التعذيب، سحبوه من زنزانته مكبلًا، جسده متوهج من الحروق،
وأخذوه إلى غرفة صغيرة يطلقون عليها "كبس الموتى"،
مكان ضيق مُعدّ لضغط الجثث، حيث يُكبّس المعتقلون الذين وصلوا إلى نهاية طريقهم.

وضعوه داخل آلة الكبس، التي تحولت إلى آلة تعذيب لا ترحم،
ضغطت عليه الآلة، حتى بدأ جسده يتحول إلى كتلة مشوهة،
صراخ نبيل اختفى تدريجيًا، محاطًا بصمت ثقيل،
حتى اختفى تمامًا من هذا العالم المظلم.
كانت لحظة مروعة، لم يكن فيها سوى الصمت،
صمت يرويه كل من شهد مأساة ذلك العشاء الأخير.
بعد اختفاء نبيل في ظلمة "كبس الموتى"، بقيت الصدمة تتردد في أرجاء السجن، كأنها موجة عاتية تتقاذف قلوب من تبقى من السجناء.

جلسوا في الزنازين، يُمسكون بأيدي بعضهم البعض، يتشاركون الألم الصامت، والهمسات التي تكاد تُخرس الكلمات.

قال "سامي" بصوتٍ مكسور:

"لم يكن نبيل فقط رفيقنا... كان نبضنا، صوتنا الذي كان يخبرنا أننا ما زلنا على قيد الحياة."

كان الحراس يعتقدون أن كسر الجسد يكفي، لكنهم لم يفهموا أن الروح قد تعلقت بنبيل، وأن رحيله ترك فجوة لا تُملأ.

في أركان الزنازين، وقف "مروان" بهدوء، يُحدّق في الجدار، وعيناه مليئتان بالدموع، لكنه قال بصوتٍ خافت:

"كل لحظة ألم، كل دمعة، كل كسر... نحن هنا لنحيا، ولن ننسى."

كانت الصلاة الجماعية التي بدأت بعد ذلك بمثابة تمرد صغير،

تمرد على الصمت، على الخوف، على الظلام الذي حاولوا أن يغرقوا به حياتهم.

في تلك اللحظة، عرف السجناء أن عشاء نبيل الأخير لم يكن نهاية،

بل بداية لصلاة بلا صوت، ونضال بلا دموع، ونور في ظلمة لا تنطفئ

أربع خطوات للهواء
التأني قد لا ينقذك من حتفك

كانت سارة قد وصلت إلى تلك الزنزانة المظلمة التي كان يلفها الصمت القاتل، لكن داخلها كانت أعاصير الألم تهب بلا توقف.

أيام وأسابيع من التعذيب المستمر،

تكرار الإهانة والاغتصاب الذي لم تعرف له نهاية،

عدد لا يحصى من اللحظات التي كانت فيها تُقتل روحها دون أن يموت جسدها.

في إحدى الليالي القاتمة، جلست سارة في ركن الزنزانة، رأسها يضرب الحائط ببطء،

تمتمت بصوت متهدج وكأنها تحاور نفسها:

"لماذا؟ لماذا أنا؟ هل سأخرج من هذا الظلام يومًا؟"

رد صوت حارس غليظ من خلف الباب الحديدي:

"اسكتي! أنتِ هنا لتطيعي، وليس لتبكي."

لكنها لم تستطع الصمت،

قالت بصوت خافت، لكن فيه قوة غريبة:

"أنا أكثر من جسدكم، أكثر من ألمكم...

حتى لو حاولتم أن تُنهوا حياتي، روحي ستبقى."

مرت آلاف اللحظات من العذاب، حتى جاءوا بها إلى البئر،

كانت السماء قاتمة، والرياح تعوي كما لو كانت تبكي معها.

اقترب الحراس، ربطوا يديها، ونزلوا بها ببطء في الظلام،

صرخت بصوت ضعيف، كانت تحاول أن تقاوم، لكن الأغلال كانت أقوى.

ثم سكبوا البنزين، سائلًا باردًا لامس جلدها، كان قبل النار،

كانت تفكر في أول يوم كان لديها أمل، قبل أن يأخذها هذا السجن.

وأشعلوا النار، وصوت اشتعال الحريق مزق الهواء،

كانت تشعر بحرارة تعانق جسدها، لكن عقلها يسبح في بحر من الذكريات،

ذكريات طفولة بريئة، ضحكات ضاعت، وأحلام لم تتحقق.

في أعماق البئر، وبين لهيب النار، كانت هناك روح لا تُكسر،

صرخة صمت تخترق الظلام،

كانت حكاية سارة، امرأة حاربت حتى آخر نفس.

رقصة الغبار

تقتل الاهداف وتموت الاحلام من شدة الظلم

في زوايا السجن المظلمة، حيث تلتقي الظلال بالجدران القديمة المتشققة، وقف "زيد" وحيدًا، لا صوت غير صدى خطواته التي ترتطم بالأرض الباردة.
كل يوم كان يبدأ كما لو أنه معركة جديدة، ليست فقط مع الزمن أو الألم، بل مع الوحدة التي تلتهم الروح بهدوء.
كانت رائحة الرطوبة والحديد العتيق تعبق في المكان،
ورقصة الغبار التي تعصف عبر الأروقة تبدو وكأنها حكاية تروى بلا كلمات، تراقص جدران السجن المكسورة، وتنسج من بين أنفاسه حكاية من عاشوا وماتوا هنا.

زيد، الذي كان يوماً رجلاً عادياً بين آلاف، أصبح يحمل عبء الشهادة، يحمل ذاكرة الأصدقاء، زملاء الألم، والوجوه التي اختفت دون أن تترك أثرًا سوى دموع خفية خلف الحديد.
جلس زيد على حجر بارد قرب نافذة صغيرة ضيقة، ضوء الشمس الخافت يلمس وجهه المتعب،
أغمض عينيه قليلاً، واسترجع صورة "نبيل"، الذي كان يأكل العشاء الأخير، وصراخه الخافت الذي لا يزال يتردد في أذنه.
همس لنفسه:

"كلهم هنا... كل الأرواح التي رقصت مع الغبار،
تركوا خلفهم قصصًا لم تُروَ،
وأنا، آخر الشهود، عليّ أن أحكي."

مد يده على الجدار الخشن، لمس الكلمات التي نقشها السجناء من قبل،
كلمات تختصر الألم، الخيانة، والرجاء،
كلمات تخبره أن حتى في ظلمة هذا المكان، هناك نور خافت لا يموت.
في الصمت، بدأ يهمس بأسماء الراحلين، كما لو كانت صلاة:
"مالك الطبيب، زياد الشاعر، الشيخ والصليب، الملاك الأزرق،
كلهم هنا، في قلبي، في رقصة الغبار التي لا تتوقف."
رغم الألم الذي لم يفارق جسده، إلا أن قلب زيد كان ينبض بالأمل،
أمل أن تصل شهادته إلى من خارج الأسوار،
أن يُسمع العالم صوت من فقدوا ولم تُروَ قصصهم.

مع كل صباح جديد، كان زيد يستيقظ على صوت صمت السجن، صمتٌ لا يشبه سوى نَفَسٍ عميق قبل العاصفة،
كان يخطو خطواته ببطء عبر الممرات التي باتت موطنه الوحيد،

يرى في كل زاوية ذكرى حية، وفي كل ظلال تتراقص، وجوه من عاشوا وماتوا هنا.

في أحد الأركان، وقف أمام لوحة جدارية شديدة البهتان،
كانت تتكوّن من خطوط متشابكة وعبارات نُقشت بأيدي مرتجفة،
نقوش تحكي قصة الطبيب مالك، الذي لم يعرف الرحمة، بل كان ملاكًا
يسير بين الجثث المجروحة، يُشفي الجروح التي لم تُشفى، ويُعيد الأمل إلى النفوس المحطمة.
همس زيد بحزن:
"مالك... الطبيب الذي لم يشأ أن يتركنا،
رغم اليد التي جُرحت، والموت الذي اقترب منه،
كان يحمل في قلبه إنسانية لا يموت."

تابع سيره نحو مكان آخر، حيث خُطّت قصائد زياد، الشاعر الذي كتب دمه على الجدران،
قصائد تمزق القلوب وتنثر أملًا في ظلام المكان.
وقف أمام بعض الأبيات التي ما زالت تتلألأ رغم الزمن:
"أكتب بالدم، أروي القهر،

لا يعرف الحرية إلا من فقدها."

تذكر زيد كيف كان زياد يُردد تلك الأبيات بصوتٍ مكسور، ولكنه كان صوتًا يحمل قوة لا تهزم.

ثم توقف عند زاوية مظلمة حيث جلس الشيخ مع الرجل المسيحي،
حكاية "الشيخ والصليب"، حيث تجاوز الإنسان دينه لأجل إنسان آخر،
حكاية صغيرة عن الرحمة وسط قسوة لا تُطاق.

كانت هذه الذكريات، وهذه الأرواح، هي التي تبقى في قلب زيد، هي رقصة الغبار التي لا تنتهي،
تتراقص بين الجدران، وتروي القصة لمن يريد أن يسمع.
في الليالي التي تخيم فيها ظلال الوحدة على السجن،
يجلس زيد وحيدًا، مستندًا إلى الجدار البارد،
يتأمل رقصة الغبار التي تتطاير ببطء في ضوء القمر الخافت.
كل ذرة غبار كانت كجزء من قصة، قصص أصدقاء رحلوا، قصص ألم، شجاعة، وفقدان.
همس زيد لنفسه:
"هؤلاء الذين عاشوا هنا، عاشوا أكثر مما يُرى،

في كل جرح، كان هناك نضال،

في كل دمعة، كانت هناك حياة لم تمت."

كانت يداه ترتجفان وهو يروي بألم الذكريات،

حكاية "الملاك الأزرق"، المرأة التي دخلت هذا العالم القاسي،

جاءت كنسمة هواء، رأت الألم، وبدون خوف، حملت رسالة إنسانية نادرة.

تذكر كيف كانت تزرع الأمل في قلوب المحطَمين، كيف كانت تضحك رغم الألم،

وكيف حاولت أن تكون نورًا وسط الظلام الدامس.

في ذلك المكان حيث لا يبقى إلا الغبار، كان زيد يحمل رسالة،

رسالة من قلبٍ تألم، لكنه رفض أن يصمت.

أنهى حديثه وقال:

"أنا الشاهد الأخير،

ورقصة الغبار هي شهادتي،

حكاية صمتٍ لا ينتهي."

ابتعد زيد ببطء، وخلفه ظل الغبار، يرقص ببطء في الهواء، كأنه يروي قصة لا تنسى،

قصة من عاشوا، وآمنوا، وصمدوا، رغم كل شيء.

كان زيد يعرف أن شهادته تزعجهم، أن صوته الصامت، وذكرياته الحارقة، تُشعل في ضمائرهم جمرة لم تنطفئ.

في أحد الأيام، جاءوا به من زنزانته فجأة، لم يكن مشتبهاً بشيء، لم يخالف التعليمات،
كل ذنبه أنه كان يحفظ الوجوه، ويهمس بأسمائهم ليلاً.

أُخذ إلى غرفة التحقيق تحت الأرض، حيث الضوء معلق ككذبة،
والصوت الوحيد هو صوت السلاسل حين تُسحب على الأرض.
وقف أحد الضباط أمامه، وقال بابتسامة ساخرة:
"أنت تحب الحكي يا زيد، أليس كذلك؟
تحب تروي القصص... تعيد الحكايات...
طيّب، احكِ لنا اليوم عن العظام لما تنكسر،
احكِ عن اللحم لما ينشوي حيّ."

بدأ التعذيب بهدوء يشبه البرودة،
أولًا الكدمات، ثم الأسلاك الكهربائية،

ثم جلسات الضغط على الأضلاع حتى تشقق صدره كأنفاس عميقة في زجاج مكسور.

لكن زيد لم يصرخ.
هو الرجل الذي سمع كل أنواع الصراخ، ولم يُسمع صوته.
أخذوه إلى ما يسمى "الكرسي الألماني"،
معدن حاد، يُربط فيه الجسد بوضعيات تُمزق الأعصاب،
وكانوا كلما سقط في الغيبوبة، صبّوا عليه ماءً باردًا ليصحو،
فقط كي يعيدوا كسره من جديد.

قال أحد الحراس متعجّبًا: "لماذا لا يصرخ؟ ما الذي يحمله في قلبه؟"
فقال الضابط بهدوء:
"هذا ليس رجلًا... هذا سردٌ حي، يجب أن يُقطع من جذوره."

في الليلة الأخيرة بدأ قلب زيد يبطئ، كل نبضة كانت تنهار تحت ثقل الوجع،
عيناه مفتوحتان،
ينظر إلى السقف وكأنه يرى مَن رحلوا قبله.
همس بصوته المكسور:

"أخبروا العالم... أن الغبار لا يرقص عبثًا،

كل ذرة حمراء... هي اسم."

ثم سقط رأسه،

دون أن يصرخ،

ومات.

لكن في الزنزانة رقم (صفر)، على جدارٍ مهمل، نُقش بخطٍ مرتجف:

"هنا مات زيد... ولم تمت القصة."

في ظلال الكتب المسروقة

الكتابة جوهرة ثمينة جدا ولكنها قد تقتلك في النهاية

كان اسمها ليلى، فتاة في العشرين من عمرها، تدرس الأدب في الجامعة، تحمل بين يديها حلمًا بسيطًا: أن تُكمل تعليمها، وتُغيّر واقع بلدها بالكلمة.

في يومٍ من الأيام، وبينما كانت عائدة من المحاضرات، توقفت في شارع مزدحم، ووجدت نفسها بين موجة من المتظاهرين، تحمل شعارات تطالب بالحرية والكرامة.

رغم خوفها، شاركت بصمت، كانت تُردد في نفسها:

"أنا هنا لأنني أؤمن بحقنا في الحياة."

لكن لم تكن تعلم أن تلك اللحظة ستكون نقطة البداية لسلسلة من الأحداث التي ستغير مجرى حياتها.

في الليلة نفسها، داهمت قوات الأمن شقتها، جرّوها بقوة أمام أهلها المصدومين،

وجُرّت إلى مركبة مظلمة، لم تعرف وجه السجانين،

فقط كانت تسمع صرخات خارج السيارة، وصوت أبويها الذي كان يتوسل:

"ليلى، لا تؤذيها، إنها بنتي!"

في السجن، لم تكن كما يتوقعون، فتاة خائفة،

بل كانت قوية رغم الصدمة، تحاول أن تحافظ على ما تبقى من كرامتها.

لكن العذاب لم يتوقف، التعذيب النفسي والبدني، حرمان النوم، وتقييد اليدين،

ومنع الزيارات، كل ذلك كان قاسياً.

جلسة واحدة بقيت محفورة في ذاكرتها، حين اقترب منها محقق وقال بصوت بارد:

"أنتِ لست سوى أداة، ستُستخدمين للضغط على الآخرين.

لا تصدقي أن قصتك ستصل لأحد."

ليلى أجابت بهدوء غير متوقع: "القصة وصلت، قبل أن تعرف. الكلمات لا تموت."

في الزنزانة، رأت زميلاتها، نساءً حملن أحلامهن وكبريائهن معًا،

تحدثن عن الحرية، عن الكتب التي سُرقت، عن المستقبل الذي ضاع.

ذات مساء، قبل النوم، همست ليلى:

"سأنقذ نفسي بالكلمة، ولو كان الثمن دموعي."

مرت شهور، تحولت ليلى إلى صوت خافت، لكن لا يهدأ، كان ترددها في الليالي السوداء،

ينثر بذور الأمل بين السجناء.

بعد أشهر من الاعتقال والتعذيب، كانت ليلى تتشبث بما تبقى من قوتها،

تحاول أن تحافظ على كرامتها وسط بحر من الألم والوحشية.

لكن في إحدى الليالي السوداء،

اقتادها الحراس إلى غرفة باردة، ذات جدران مبللة برائحة العفن،

حيث تنتظر كل امرأة مآلها المحتوم.

دخل إليها ضابط ذو نظرات جامدة، لا تعرف اسمه، وبدأوا يغتصبونها، مرة بعد مرة،كأنهم يريدون أن يمحوا وجودها، أن يقتلوا روحها قبل جسدها.

كانت تبكي بصمت، تهمس بصوت مكسور:

"لماذا؟... لمَ أنا؟"

لكن لا إجابة سوى صدى الصمت المرير.

في الصباح التالي، ربطوا يديها، وضعوا الحبل حول عنقها، كانت آخر نظراتها للعالم مليئة بالدموع، لكن في عينيها كان هناك نيران رفض الاستسلام.

ارتفع الحبل، وانقطعت أنفاسها، لكن قصتها لم تنتهِ في تلك اللحظة.

في زنزانتها، على الجدار، كتب أحد السجناء قبيل تنفيذ الحكم:

لم تمت ليلى، بل أصبحت صوت كل من لم يسمع، نجمة في سماء لا ينطفئ نورها."

العجوز وصلاة الفجر

الاستقامة في طريق الله قد يكون اثما كبيرا

في ظلام السجن، حيث تتكسر الأحلام، كان حسن، الرجل المسن، يحاول أن يحتفظ بشيء من كرامته... شيء اسمه "صلاة الفجر".

قبل اعتقاله، كان حسن يخرج كل صباح، متكئًا على عصاه،

يسير في الشوارع المهجورة نحو المسجد،

يردد بين أنفاسه الهادئة:

"يا رب، اجعل هذا اليوم أهدأ من الذي قبله."

لكن النظام لم يحتمل هذا النور، فألقت قوات الأمن القبض عليه ذات صباح، كان فقط ذاهبًا للصلاة.

في غرفة التحقيق، جلس حسن متماسكًا رغم التعب، نظر إليه المحقق ببرود وقال:

"لماذا تستمر في هذا السلوك؟ هل تظن أن الصلاة تهدد النظام؟"

أجاب حسن بهدوء: "ليس للصلاة علاقة بالسياسة، هي شجرة الظل التي أحتمي بها."

ابتسم المحقق بسخرية، ثم أمر بحبسه في زنزانة ضيقة، لم يكن هناك مكان للمُسالمين في هذا السجن.

بدأ التعذيب. في البداية، ضربوه بالعصي، حتى امتلأ جسده بالكدمات، لكنه لم يصرخ.

قال له أحد الحراس وهو يلوح بالعصا:

"هل ستظل تصلي؟ هل ستصلي وأنت محطم؟"

رد حسن بصوت خافت: "الصلاة ليست للراحة، بل للصبر."

حرموه من الطعام والدواء، ومنعوه من النوم، تألم جسده، لكنه لم يتوقف عن التكرار:

"ربنا، ثبت قلبي، اجعل صلاتي نورًا في ظلامي."

في إحدى الليالي، اقترب منه المحقق مجددًا، وقال:

"لن تنجو، يا شيخ، النظام لا يرحم حتى العجائز."

لكن حسن أغمض عينيه، وهمس:

"اللهم اجعل موتي شهادة."

مع مرور الأيام، بدأ يسقط ضعيفا لم يعد يستطيع الوقوف، لكنه كان يرفع يديه في الصلاة، كأنما يودع الدنيا بدعاء أخير.

وفي صباح أحد الأيام، وجدوه على الأرض بلا حراك، كانت روحه قد ارتفعت، لكن صلاته لم تنقطع.

في الزنزانة، حيث بقي الصمت وحده، تردد صوت صلاة الفجر،

كما لو أن حسن لا زال هناك، يُنير القلوب حتى بعد الرحيل.

صاحب الكتاب

الكتابة سلاح خطر لمن اتقنه

مازن لم يكن مجرمًا، لم يحمل سلاحًا، ولم يرتكب فعلًا عنيفًا، لكن قلمه كان خطرًا أكبر من أي بندقية.

كتب عن الحرية، عن الأحلام المكسورة، عن صوت الشعوب التي تُقمع، وكان ذلك كافياً ليُصبح هدفًا.

في يومٍ من الأيام، داهمت قوات الأمن منزله، أخذوه إلى حيث لا يعرف أحد، وبينما كان يحمل دفتره القديم،.ظن أنه فقده إلى الأبد.

لكن في السجن، أعاد كتابة كل ما كان في قلبه، بحروف تزلزل السكون، وتُشعل شمعة في الظلام الدامس.

قال له أحد الحراس بغضب: "هل تصدق أن كلماتك هذه تُهددنا؟

نحن من يأمر، وأنت من تطيع!"

ابتسم مازن بهدوء: "لا يمكنكم كبت الحروف، فالحرية تبدأ بقلم واحد."

رغم كل الألم، ظل مازن متمسكًا بقلمه، يكتب في الزنازين المظلمة،

يحلم بأن تصل كلماته إلى من يعانون خارج الأسوار

لكن النظام لم يرحمه، لم يرحم صاحب الحروف، في أحد الأيام، عُرض على آلة غريبة،

تُسمى "آلة كبس الموتى"، حيث تُضغط الأجساد المكسورة بلا رحمة.

رأى مازن النهاية تقترب، لكن عينيه بقيتا تحملان نور الأمل،

وحتى اللحظة الأخيرة، همس في قلبه:

"لن تموت الكلمة... حتى وإن مات الجسد."

حين ضغطت الآلة بقوة على جسده، انطفأ نوره، لكن قصته بقيت على الصفحات،

على جدران السجن،

في قلوب من عرفوه، وفي أمل الحرية الذي لا يموت.

تشابه الأسماء... مصير مجهول

نمشي الى حتفنا دون ان نعلم احيانا

كان اسمه علي صالح، رجل بسيط من قرية نائية، كان يعمل في تجارة بسيطة، لم يكن يبحث عن المشاكل، لكن تشابه اسمه مع شخص مطلوب في النظام جعله ضحية لا إرادية.

في إحدى الليالي، عند عودته من بيروت وعند البوابة الحدودية، تم توقيفه، سُحب من بين الناس، وأُخضع لتحقيقات قاسية.

قال له المحقق بنبرة متوعدة:

"أنت من لهم دم على أيدينا اعترف أو ستدفع الثمن."

أجاب علي ببراءة:

"أنا لست هذا الشخص، اسمي علي صالح، وليس لدي أي علاقة."

لكن لا أحد استمع، أُرسل إلى السجن، حيث بدأ العذاب الحقيقي.

في الزنزانة، تعرض لتعذيب وحشي، قطعوا أعضائه واحدة تلو الأخرى، حتى تحولت جسده إلى فتات من الألم.

كان يصرخ بصوت مبحوح:

"أنا بريء... لم أرتكب شيئًا."

لكن صوته ضاع في صدى الجدران. في النهاية،

لم يُعرف أحد بمصيره الحقيقي، لم يُسجل اسمه في أي تقرير،

وأصبح مجرد الرجل المجهول، شبحًا في ذاكرة الجحيم.

"جواز لا يفتح بابًا"

الظلم مرارته عظيمة

دخل الزنزانة مترنحًا، وجهه مشوّه من أثر الضرب، عينه اليمنى متورّمة،
ثوبه ممزق، ويداه مقيّدتان بأسلاك رفيعة، حادة،
تغوص في الجلد كلما تحرك.
كانوا قد كتبوا على صدره بالفحم:
"مرتزق خارجي".
اقتادوه إلى زاوية الزنزانة، ورموه كأنهم يرمون كيسًا من الحجارة، ثم أغلقوا الباب.

اقترب منه أحد السجناء، شاب يُدعى سامر،
جلس بجانبه بهدوء، وسأله بصوت خافت:
"شو اسمك؟"
لم يرد الرجل، بل أخذ أنفاسًا متقطعة، كأنه لم يصدّق أنه ما يزال حيًّا.
عاد سامر وهمس:
"أنا سامر... إذا بدّك مي، بخبيلك من حصّتي."

فتح الرجل عينيه أخيرًا، وقال بصوت مبحوح، فيه لكنة غير مألوفة:
"سفيان... سفيان العدوان... أردني."
اندهش سامر، وقال: "أردني؟ شو جابك لهون؟"
هزّ سفيان رأسه وقال:
"زيارة... كنت جاي أزور صاحبي بدمشق...
ما كنت عارف إن الطريق للمطار فيه بوابة... بتبلعك."

جلس سامر بجانبه، قرب الحائط الرطب، وكانت أصوات الصراخ من الزنازين المجاورة تمزق صمت الليل لكن سفيان كان غائبًا، ينظر في نقطة بعيدة وكأنها ليست هنا.

قال سامر:

"ليش كتبوا على صدرك (مرتزق خارجي)؟"

ضحك سفيان ضحكة قصيرة، أقرب للبكاء:

"علشان اسمي بيشبه اسم واحد مطلوب.

ما فرّق معهم،

قلتلهم عشرين مرة: أنا مش هو، بس ولا واحد كان عم يسمع."

اقترب سامر، وغطى صدره المعرّى ببقايا قماش قديم،

ثم قال له:

"هون، إذا ما بتصرخ، بتموت بصمت.

وإذا صرخت... بتموت أسرع."

أغلق سفيان عينيه، ثم همس:

"أمي كانت دايمًا توصي: إذا طلعت برّا، خليك دايمًا متعاون

بس ما قالتلي كيف أكون متعاون لما يبلعوك بدون سبب."

في الأيام التالية،

بدأ جسده يتآكل ببطء، الطعام بالكاد يصل، والتحقيقات لا تتوقف.

كانوا يسألونه:

"كم قبضت؟ من مين؟

شو مهمّتك؟

وكان يرد كل مرة:"أنا سائح دخلت بفيزا... مش مرتزق، ولا عميل."

لكنهم لم يكونوا يريدون جوابًا، بل أنينه، وتفتت عظامه.

في إحدى الليالي،

بعد جولة تعذيب طويلة، عاد سفيان إلى الزنزانة، لا يستطيع الجلوس.

سأله سامر:"شو صار؟"

قال له، وعيناه ممتلئتان بالدم: "بَدهم أعترف بإني عميل،

قالولي إذا ما اعترفت، راح تروح على (الكبس).ما كنت بعرف شو يعني الكبس بس بعد اللي شفته اليوم صرت بتمنى الموت."

ليلة وفاته كانت صامتة. فتحوا باب الزنزانة، نادوا على اسمه بلؤم:

"سفيان العدوان!

جاييك ضيوف من بلدك..."

وقف مترنحًا، وقال سامر:"لا تروح... يمكن هاي النهاية."

ابتسم سفيان، لأول مرة:"كل شي هون بيشبه النهاية بس أنا بدي أرجع أمي... لو حتى بالحلم."

أخذوه. بعد ساعات،وصلت رائحة غريبة إلى الزنزانة،

ثم دخل أحد الحراس وهمس لرفيق آخر:

"الكبس شتّت جسمه... ما ظل شي يُدفن."

جلس سامر تلك الليلة، وكتب على الحائط بكعب حجر:

"كان اسمه سفيان، لم يحمل بندقية، ولا هتف بشعار، فقط... كان هناك."

الإخوة الخمسة

قد تكون اخون لكن من المستحيل ان تكون نهايتنا متشابهة

كانوا خمسة، من عائلة واحدة. خمسة أشقاء لم يعرفوا شيئًا من السياسة، لكنّ دمهم كان يحمل إرثًا من العناد والشجاعة، نشأوا في بيت فقير قرب الحدود، يلبسون نفس الثياب، ويأكلون من ذات الصحن،
ويضحكون معًا كأن الحياة لعبة أخوة لا تنتهي.

في ربيعٍ من أعوام الحرب، اقتيد الأخ الأكبر، شاكر، لأنه رفع صوته في سوق الخضار:

"بدنا نعيش، بس هيك، نعيش."

وبعده بأسبوع، اعتُقل زاهي، الأخ الثاني، لأنه ذهب ليسأل عن أخيه. ثم جاء دور عاطف، ونذير، وسليم.

واحدًا تلو الآخر... كأنهم يُقتلعون من الحياة بقانون "الدم المتشابه".

جُمِعوا في جناحٍ واحد دون أن يعلموا،

كلٌ منهم في زنزانة، يبكي دون أن يدري أن أخاه يبعد عن بابه مترين فقط.

في إحدى الليالي، سمع شاكر صوتًا مألوفًا ينادي في الظلام:

"سليم! سليم! أنت هون؟ أنا نذير!"

وقف شاكر فجأة، وصرخ:

"نذير؟ نذير، أنا هون... شاكر هون!"

وارتجّ الجناح كله بأسماءٍ كانت تنزف شوقًا:

"أنا عاطف!"

"أنا زاهي! هون!"

كانت لحظةً أغلى من الهواء، سمعوا أصواتهم من خلف الحديد، وعادوا إخوة... ولو بالكلمات فقط.

لكن السجن لا يحتمل الفرح. في اليوم التالي، فُصل كلٌّ منهم إلى جناحٍ مختلف، وتم تعذيبهم لأيام، بتهمة "التحريض العاطفي بين المساجين".

بدأ شاكر يفقد ذاكرته، وكان يردد:

"أخواني عايشين؟ ولا أنا عم أحلم؟"

زاهي كسرت أضلاعه، عاطف فُقد بصره.

نذير عُلّق من كتفيه حتى تشقق جلده ، وسليم... الطفل الصغير، لم يتحمل... ومات وهو ينادي:

"يا أمي... لمي إخواتي..."

جاء حارس ذات يوم وقال لشاكر:

"واحد من إخوتك مات... بس ما راح نخبرك مين، عشان يضل قلبك عم يحترق."

بكى شاكر كطفلٍ كُسر ظله، وضرب رأسه بالحائط، ثم كتب بدم إصبعه على الجدار:

"نحن خمسة... وكنا نحب الحياة.

الآن، نموت، واحدًا تلو الآخر، ولا أحد يسأل: لماذا؟"

قبل أن يموت،تمنّى شاكر أن يُدفنوا في قبرٍ واحد ليعودوا إخوة كما كانوا في تلك الدار الطينية القديمة.

لكنهم تفرّقوا كما تفرّقت أوطانهم.

دُفنوا في أماكن مجهولة، وصار اسمهم يُهمس به فقط... في الزنازين.

بائع المعجنات

بلا ذنب وبلا سبب اصبح من المفقودين

كان يُعرف بين الناس بأبو حسن، رجل خمسيني بسيط يبيع المعجنات صباحًا، ويحمل في كفّيه رائحة الخبز، وفي عينيه نور الطيبة. لم يكن يتقن شيئًا سوى العجن، وكان يوقظ أولاده كل فجر بصوت الفطائر وهي تنتفخ في الفرن. كان يمشي في الأزقة بابتسامة تشبه شكل أرغفته: دافئة، مطمئنة، حنونة.

في صباحٍ عادي، وقف قرب باب المدرسة يوزّع المعجنات على الأطفال. اقتربت منه سيارة سوداء، نزل منها رجال بلا شارات، اقترب أحدهم وسأله بغلظة: "شو عم توزّع؟"، فأجاب وهو يضحك: "زعتر وجبنة... وإذا بتحب في حب كمان". لم تمضِ دقيقة حتى كان مقلوبًا على وجهه، تُركت صينيته مقلوبة، وفطائره مبعثرة على الأرض. صرخ طفل من بعيد: "عمو! نسيت تعطيني فطيرتي!"، لكن أبو حسن لم يرد، كان رأسه قد ضُرب على حافة السيارة، واقتيد إلى العتمة.

في السجن، لم يعرف ماذا يقول. حين سأله أحد المعتقلين عن تهمته، قال بخجل: "أنا بائع معجنات يا ابني... هيك بيقولوا عني مجرم". لم يسلم من العذاب، أدخلوه غرفة التحقيق، سُئل عن مواد مشبوهة داخل فطائره، وركلوه

حتى كُسرت أضلاعه، ثم عُلق من معصميه، وصُب الزيت المغلي على قدميه، كما لو أنه العجين نفسه الذي اعتاد أن يُطعمه لأولاده.

لكنه لم يشكُ. ظل يتمتم طيلة أيامه القليلة هناك: "يا رب... رجعني لعجيني، بس أشوف حسن، ابني الصغير، وآخذة معي عالسوق".

في أحد الصباحات، استيقظوا عليه جسدًا ساكنًا. لم يكن هناك صراخ، ولا دم، فقط السكون... كأنه نام على شكل فطيرة صغيرة أخيرة. كان ميتًا، لكن على وجهه ظلال ابتسامة، ويده اليمنى تحت رأسه، واليسرى ما زالت تقبض على قطعة خبزٍ يابسة، خبأها لأحد الأطفال الجائعين في الزنزانة المقابلة.

لم يُكتب اسمه في أي سجل، ولا سأل عنه أحد. لكن على حائط الزنزانة، نُقشت بشفرة صغيرة الكلمات الأخيرة التي أنصفته:
"هنا مات رجلٌ بسيط... كان يطعم الجوعى برائحة الخبز، ويحلم بالعودة إلى الفرن."

طبيب الاسنان

وسام شرف كبير يجب ان اناله

كان طبيبًا شابًا، في الثلاثينات من عمره، وسيمًا بنظارة صغيرة ووجه هادئ، اعتاد في عيادته أن يُنقذ آلام الناس بابتسامة وحقنة مخدر. اسمه الحقيقي نسيه السجناء، لم يعودوا ينادونه إلا بلقبه الوحيد: "الدكتور".

اعتُقل من عيادته ذات ظهيرة، حين اقتحم رجال الأمن المكان وهم يصرخون:

"أنت عم تعالج ناس مطلوبة! بتحط حشوات حرية بتمهم؟"

لم يكن يعرف شيئًا عن التهم. فقط أُخذ، واقتيد إلى المكان الذي تُقتلع فيه الأضراس لا بأدوات معقمة... بل بالكماشة.

في صيدنايا، لم يكن السجن يعرف الرحمة، لكن المرض لا يفرّق بين سجان وسجين.

سرعان ما صار الطبيب الوحيد بين الجدران. كانوا يأتونه بصرخات الوجع، وهو لا يملك أدواته، ولا ضوءًا، ولا حتى ماء.

كان يعالج بأظافره، يكسر العظم بأصابعه، ينزع الضرس بالخيط والباب.

وحين اشتد التعذيب على أحدهم، جاءه مرة وقال له: "يا دكتور، اقتلع لي الضرس... بس لا تخليني أنام وأنا أبكي."

تحوّلت الزنزانة إلى عيادة بدائية. كان يصنع المخدر من رماد الحبوب المهروسة بالماء،

ويغسل الفم بماء الحمّام الملوث. لكن السجناء وثقوا به، وكان هو يبتلع حزنه حتى لا يُظهر لهم الخوف.

مرة، حاول أحدهم الانتحار بشفرة حلاقة،

أنقذه الدكتور بخيط قديم وسكين بلاستيكية.

قال له الحارس بعدها: "إذا لم يمت... ستموت أنت بدلًا عنه."

ضحك الطبيب وقال: "أنا ما عدت حيًّا من يوم دخلت هذا الجدار."

لكن الجدار ضاق.

وفي أحد الأيام، توجّه إليه أحد السجانين وقال له: "شو؟ عم تعمل حالك ملاك؟"

ثم أمر بجلبه إلى التحقيق.

كُبّل من قدميه، ووُضع له كماشة حديد في فمه،

واقتُلعت كل أسنانه واحدة تلو الأخرى، ليتعلم –كما قالوا – معنى "الصمت الطبي".

عاد إلى الزنزانة وجهه مشوه، ينزف، بالكاد يتنفس،

لكن أول ما فعله، هو الإشارة إلى أحد السجناء أن يقترب،

وقال له بفمٍ مشقق:

"ألم الضرس؟... راح أساعدك... بس شوي شوي."

مات في اليوم التالي.

فمه مفتوح، كأنه لا يزال يحاول قول شيء لم يُقال بعد.

ويده على قلبه، كمن يحلف بقَسمه الأول: "أقسم أن أخدم البشرية بضمير حيّ."

لم يُكتب في سجلات السجن شيء عنه.

لكنه بقي في ذاكرة كل من مرّ من هناك.

وعلى الجدار الرمادي الذي تقشّر لونه، كُتب بخط مرتجف:

"الدكتور... عالجنا بلا أدوات، وضحّى بأسنانه من أجلنا... مات وفي قلبه حشوة شرف."

استاذ في الثانوية

الغدر قد يأتيك من اقرب الناس إليك

كان الأستاذ علاء رجلاً بسيطًا وأنيقًا، عُرف في الحيّ بعلمه وأخلاقه. كان مدرسًا في مدرسة ثانوية، يحبّ تلاميذه كأنه أبٌ لهم، ويسعى دائمًا أن ينير عقولهم بغير ما في يده من كتب، وأفكار تحرّرهم من قيود الجهل والخوف.

في صباح ذلك اليوم، خرج من منزله وهو يحمل حقيبته الجلدية، يتوجه إلى مقر عمله لاستلام راتبه الشهري، الذي كان بالكاد يكفي لقوت عائلته البسيطة. لم يكن يتوقع أن طريقه إلى الراتب سيكون طريقًا إلى السجن، ولن يعود إلا محمولًا بين الجدران الباردة.

عند البوابة الأمنية، توقّف فجأة مجموعة من الرجال بملابس مدنية، وجهوا له أسئلة حادة، وبيدٍ حازمة أمسكوا به، وقالوا له:

"أنت من أصحاب التقارير، من الذين ينادون بالحريّة؟"

حاول أن ينكر، لكن كلمات كانت قد انتشرت عن تقرير صغير كتبه سريًّا يعبر فيه عن أحلامه بمستقبل أفضل، عن حق التلميذ في الحرية، وعن كرامة الإنسان التي لا تُباع ولا تُشترى.

أُخذ إلى السجن، وهناك بدأ الكابوس.

لم يكن هناك تحقيق حقيقي، فقط ضرب وتعذيب بالكلمات والأجساد، واتهامات لا تنتهي. حاول الأستاذ علاء أن يشرح أن كلماته كانت دروسًا، لا تهديدًا، لكن لم يكن أحدٌ يسمع.

في الزنزانة، جلس وحيدًا، يفكر في تلاميذه، في وجوههم البريئة التي لم يعد يستطيع رؤيتها، وحين يغمض عينيه، يتخيّل نفسه يشرح لهم درسًا جديدًا عن الحرية.تعذّب بالصمت، دون أن يشتكي، وصبر على الألم الجسدي، لكن جرح قلبه كان الأعظم.

في إحدى الأيام، أتى أحد الحراس وقال له بتهكم:

"هل تعلم يا أستاذ؟ راتبك سيُخصم، وستُعامل كخائن."

ابتسم علاء بهدوء، وقال:

"لا يمكن لراتب أن يشتري الكرامة."

ولكن مع مرور الأيام، بدأ الجسد ينهار، والروح تكاد تذوب تحت وطأة الألم والظلم.في النهاية، لم يُعثر عليه حيًا، بل نقلوه بعد موتٍ بطيء تحت التعذيب إلى المجهول.

ورغم ذلك، بقيت كلماته التي خطّها في تقاريره سرًّا يتداولها بعض السجناء، مثل شعلة صغيرة تنير لهم في الظلام.

طفل بلا أب

حضور في مكان كله ألم ودم

اسمه الحقيقي غير معروف، لكن في السجن كانوا يسمّونه "الولد". لا أكثر، لا أقل.

طفل لا يتجاوز عمره العاشرة، ظهر فجأة بين أروقة الجناح، كأنه شبح صغير تاه من حضن أمه،

أو طفل خرج ليلعب فعاد إلى جحيم لا مفرّ منه.

قيل إن أباه أُعدم منذ سنوات، وأن والدته لم تعرف مكانه، حتى اقتادوه هو، الطفل،

بذريعة:

"ابن الإرهابي يجب أن يُربّى هنا."

كان يمشي في الممر حافي القدمين، عيناه واسعتان لا تفهمان ما ترى،

يسأل الحراس دون وعي: "عمو... وين باب البيت؟"

يضحك أحدهم ويقول:

"بيتك هون، لعبتك هون، وقبرك كمان."

في الزنزانة، تقاسم رغيف الخبز مع رجال فقدوا أبناءهم، وصار لهم هو ابنٌ صامت،

تتفتح في وجهه ابتسامات بائسة، كلما ضحك...

ضحكوا خوفًا من بكائه القادم.

قال له أحد السجناء ذات ليلة:

"شو اسمك يا بطل؟"

هزّ رأسه وقال:

"نسيت... من زمان ما حدا ناداني باسمي."

كان يحب الجلوس قرب الباب، ينظر من ثقب صدئ إلى ضوء بعيد،
وحين يسأله أحدهم: "شو عم تطلع؟

يجيب:

"يمكن باب المدرسة... أو يمكن وجه ماما." لم يكن يُعذّب كالكبار،
لكنه كان يُجبر على المشي حافيًا على الملح، أن يحمل أوعية البول، أن يغسل
دماء التعذيب من الأرض...وأن يشهد. أن يشهد كل شيء. وفي ليلةٍ مظلمة،
سمعوه يصرخ من زنزانة الحبس الانفرادي،
ركضوا إليه، فوجدوه يلتف على نفسه، يرتجف كعصفور تحت المطر.
قال بصوت مبحوح:

"رجّعوني عالمدرسة... ما بدي موت هون."

لكنهم لم يرجعوه.

في صباح اليوم التالي، كان جثمانه الصغير مُلقى عند باب الزنزانة، تكسّرت عظامه من الداخل. قال أحد الحراس بابتسامة ساخرة:

"ما تحمّل اللعب مع الكبار."

بكاه السجناء بصمت، وبعدها اختفى لاجثته عرفت اين ولا هو ، وكتب أحدهم بشفرة على الحائط:

كان طفلًا... يُحب النور، ويؤمن أن أمّه ستأتي."

فتاة من الريف

لا بأس من المحاولة

كانت نور فتاة من قرية صغيرة بين تلال الريف، حيث الهواء نقي والأرض ترويها مياه الجدول الباردة. نشأت بين أحضان الطبيعة، تعشق البساطة وتحب الحياة بهدوئها، كانت تحلم بأن تدرس وتصبح معلمة، تنقل لطفل الريف حكايا الأرض والشمس.

في يوم من الأيام، جاءتها فرصة للالتحاق بالجامعة في المدينة، وكان قلبها يخفق فرحًا وحماسًا. ولكن المدينة لم تكن كقرية أمها، ولم تكن شوارعها كأنهار بيتها الصغيرة.

اعتقلت في أول أيام الاحتجاجات، لم تكن تعرف لماذا، فقط قالت لها امرأة من الحي:

"إنتِ منهم، اللي عم ينادوا بالحرية، بدهم يشغلوا الدنيا."

في السجن، لم تكن تعرف معنى الحرية، بل فقط ظلت تحلم بها، تهمس في الزنزانة:

"أنا نور... من الريف... ما جئت لأكون سجينة."

تعرضت للتعذيب، ومرّت بأوقات مظلمة،

ولكن رغم الألم، كانت تذكر صوت الجد الذي كان يقول لها:

"نور يا بنتي، لا تضيعي نورك."

كانت تحكي للسجناء الآخرين عن قريتها، عن الحقول التي تشرق مع الشمس، وتقول لهم:

"هذه الأيام صعبة، لكنّي أؤمن أن الربيع سيعود."

لكن في النهاية، في ليلة مظلمة، حين كان الجميع ينام، سقط عليها الظلام، ونسيت حتى أن تحلم.

الخاتمة "قلعة لن تفتح "

تعددت الأقوال والمشهد واحد اختفاء الى اليوم الموعود

سقط النظام، تهاوت تماثيل الصمت، وتشقق الجدار الأول من جدران الخوف، وفي المدن بدأت العيون ترى الضوء لأول مرة بعد عمرٍ من الظلمة. عشرات السجون فُتحت، آلاف المعتقلين خرجوا، كان المشهد مؤثرًا حد البكاء، رجال يعانقون الشمس، نساء يصرخن بأسماء من ماتوا، وأمهات يعدن بصور أبنائهن كي يتأكدن من الملامح التي سرقتها الزنازين. لكن صيدنايا... ذلك المكان لم يكن كباقي الأمكنة. فحين وصلت أولى القوافل إلى بوابته، وقفوا مشدوهين أمام باب فولاذيّ عظيم، بلا مفتاح، بلا قفل ظاهر، باب يُدار بشيفرة لا يملكها أحد. فتحوا بعض الزنازين وخرج عدد من الناجين، وجوههم كالأرض بعد زلزال، أجسادهم نحيلة، لكن أعينهم مشتعلة. قال أحدهم وهو يرتجف: "أنا حي... لكن ليس الجميع ماتوا. هناك أحياء... ما زالوا في الداخل." ارتبك الجميع. عادوا ليطرقوا أبوابًا أخرى في صيدنايا، لكن لا استجابة. أرسلوا خبراء ومهندسين وأطباء، فشلوا جميعًا. قال أحدهم: "الأبواب ليست أبوابًا فقط... إنها قرارات. وهذه القرارات لم تُسحب بعد." بعض الخارجين رووا قصصًا مرعبة: عن طرق من داخل الجدران، عن أناشيد خافتة تُغنّى كل فجر، عن ظلال تتحرك بلا صوت. قال أحدهم: "من في الداخل لا يعلم أن النظام سقط... ولا يعلم أن العالم تغيّر... كأن الزمن توقف هناك." مرت الأعوام، وتحوّل

صيدنايا إلى لغز، إلى لعنة، تجرأ البعض على الاقتراب، حاولوا كسره، فشلوا. قيل إن المكان محميّ بأنظمة قديمة معقّدة، وقيل إنه بُني ليُغلق إلى الأبد. أما أولئك الذين بقوا في الداخل، فلم يُعرف مصيرهم، ولا أحد يعلم: هل ما زالوا على قيد الحياة؟ أم أن الغبار أصبح وحده الشاهد، كما كان دومًا؟ وهكذا، بقيت الرواية ناقصة. فصولها مكتوبة، إلا آخرها... فهو لا يُكتَب... بل يُنتظر. إلى يومنا هذا، ما زال صيدنايا قائماً، وما زالت أبوابه مغلقة، كأنها لا تحتوي بشرًا... بل سرًّا.

محمد الحاج مستو